# الفكر الفلسفى

## الفلسفـــة:

### ما هى الفلسفة.....؟

الفلسفة هى موضوع فلسفى لم يحسمه الفلاسفة حتى الآن، أو فى قول آخر: هى مجموعة تساؤلات لم تحسم الإجابة عليها. تعددت المدارس الفلسفية، واختلف الفكر فى كل مذهب، وتطورت النظريات الفلسفية عبر التاريخ مع تطور الأفرع الأخرى فى العلوم الطبيعية وفى مفهوم القيم والأخلاق. فى بداية التعريف، فإن الفلسفة متضمنة فى كل مجالات التعليم المتقدم الذى يتجاوز المراحل الأولية من قراءة وكتابة وعمليات حسابية، لذا يطلق على الفلسفة تعبير "أم العلوم" باكتساب المرء معلومة محسنة ومؤكدة ومصنفة، ومرتبة منهجيا لظاهرة ما، فإن فرع خاص من التعليم يكون قد تبلور وانفصل من الفكر العام ليتحول الى موضوع فلسفى.

يخطئ من يظن أن الفلسفة مرتبطة بالماضى الطويل وبتاريخ الإنسان عبر العصور، وأن قدر الفلسفة أن تختفى فى المستقبل حين يحدث تشبع واستكفاء فى بحوث العلوم الطبيعية والإنسانية. إن التشبع والاستكفاء لن يحدثا إلا بنهاية المنظومة البشرية، وعليه فسوف تنتهى الفلسفة بنهاية منظومتنا التى يحويها عدم التأكد Uncertainty فى كيف، ومتى، وأين ستكون النهاية. لقد نفذت وتشعبت الفلسفة فى: جميع أنواع العلوم من: منطق، وأخلاق، وقيم، وأديان، وقانون، وسياسية، وعلوم طبيعية، . . . إلخ، وارتبطت بها وامتزجت معها، لذا أصبحت الفلسفـــة جزءًا لا يتجـــزأ من منظومـــة الإنسان الحياتية التى يتعايش معها فى رحلته. من ماضى لا يعرفه ومستقبل يجهله.

ظهرت كلمة فلسفة Philosophy فى العصر الذهبى للحضارة اليونانية القديمة بمعنى "محبى الحكمة" Lovers of Wisdom، وارتبط منشأ هذه الكلمة ببداية ظهور التعليم الأكاديمى. أطلق سقراط على نفسه وعلى أتباعه

كلمة فلاسفة من أجل التأكيد على حبهم للعلم والحكمة أو من أجل التمييز بين مذهبهم ومذهب السوفسطائيين Sophists. عاش سقراط Socrate فى الفترة ٤٧٠ - ٣٩٩ ق. م، لم يكتب فيها الفلسفة بنفسه ولكن جاءت فلسفته نتيجة مناقشاته مع تلاميذه الشبان الذين تجمعوا حوله فى حلقات بحث ومحاورات طورت الفلسفة الإغريقية فيما بعد.

كانت السوفسطائية جزءًا من المرحلة الانتقالية بين الفلسفة البدائية التى لم تنظر إلا للطبيعة وللكون ككل، وبين فلسفة الفلاسفة الإغريق العظام، مثل: سقراط، وأفلاطون Plato فى الفترة ٤٢٨ - ٣٢٢ ق. م، وأرسطوطاليس Aristotle فى الفترة ٣٨٤ - ٣٢٢ ق. م، والذين بنوا فلسفتهم على النظم الراقية من علوم إنسانية، وسياسية، وعلمية، ودراسة العقل البشرى كوعى وإدراك، وطرق التفكير المنطقى، وتحليل السببية، وطرق المعرفة الموضوعية. ظهر السوفسطائيين فى عصر الانحدار السياسى، والفساد الاجتماعى كمنتقدين لاضمحلال الفلسفة دون الرقى بها أو تطويرها.

كان القرن الخامس قبل الميلاد هو قرن نهضة أثينا، معلنة بدء حضارة انتقلت بعد ذلك إلى روما، مُشكلة تكوين جنين الحضارة الغربية التى بزغت فى القرن السابع عشر الميلادى والتى استمرت حتى وقتنا الحالى. فى القرن الخامس قبل الميلاد ظهر سقراط محبًا للجدل، دارسًا للفلسفة، معجبًا فى وقت ما بالسوفسطائيين الذين غزوا الفكر الأثينى فى أيام شبابه. كانت كلمة (سفسطة) تعنى فى بدايتها "تعليم الحكمة"، حتى قام أفلاطون بالهجوم عليهم لنزعة بعض السفسطائيين إلى الأعمال التجارية بغية المكسب من جراء ما كانوا يتقاضونه من أجر باهظ نظير تدريس المنطق والبلاغة. كان سقراط يتفاعل مع الناس بأن يطلب من محدثه أن يقوم بتعريف فكرة عامة شاملة، ثم يبحث فى هذا التعريف ليكشف عما فيه من نقص وتناقض، ومن سخف وبطلان، ثم يستدرج محدثه بأسئلته المتعاقبة للوصول إلى تعريف كامل وصحيح. بالرغم من أن سقراط لم يكن يؤمن بالدين، إلا أنه كان يعبد آلهة

مجتمعة بلسانه فقط، لذا لم تكن الفلسفة عند سقراط هى الدين أو أمور ما وراء الطبيعة، أو حتى الطبيعة نفسها، بل كان علم الأخلاق والسياسة مدخلها والوسيلة إليها هو المنطق. إذا كانت المعرفة عند سقراط هى أسمى الفضائل، فإن الأورستقراطية هى خير أشكال الحكم، والديموقراطية فى مذهبه سخفًا وعبثًا، أو كما جاء على لسانه: (من السخف أن نختار الحكم بالقرعة على حين أن أحدًا لا يفكر قط فى أن يختار بالقرعة مرشد السفن أو البناء أو النافخ فى الناى، أو أى صانع على الإطلاق، مع أن عيوب هؤلاء أقل ضررًا من عيوب أولئك الذين يفسدون حكوماتنا).

شهد القرن الخامس قبل الميلاد محاكمة سقراط بتهمة ازدراء الأديان ثم موته، وشهد أيضًا ميلاد أفلاطون المكنى "بالمعلم" فى عام ٤٢٧ق.م. كان أفلاطون أول من كتب - فى المقالة الثانية من الجمهورية - عن مدينة تحيا فى مناخ فطرى وشيوعى، وذلك قبل أن يكتب توماس مور عن مدينته الفاضلة "يوتوبيا" بحوالى ألفى عام. بحث أفلاطون فى مواضيع مختلفة، مثل: المنطق، وما وراء الطبيعة، والأخلاق، وعلم الجمال، والسياسة. كان حدس أفلاطون دليله فى الذهاب إلى أن كثيرين من قرائه سيكونون من المتشككين، فحاول وضع مبادئ ونظم وقوانين أخلاقية طبيعية تبعث فى نفوس البشر الرغبة فى الاستقامة والصلاح بدون الاعتماد على السماء، وما تحتويها من المطهر والجحيم. تحولت محاوراته فى حياته الوسطى من الميتافيزيقا إلى الأخلاق والسياسة، فمن أقواله: (إن أعظم أنواع الحكمة وأجملها هى الحكمة المتصلة بتنظيم الدول والأسر). كانت المشكلة الرئيسية فى علم الأخلاق تدور حول النزاع الظاهر بين أنانية الفرد فى إشباع احتياجاته ورغباته وملذاته، وبين الخير الاجتماعى الذى يعود بالفائدة على المجتمع ككل. كان أفلاطون يعترف بأن الرغبة فى اللذة لا عيب فيها ولا إثم، ولكن الإنسان فى حاجة دائمًا للذكاء للتمييز بين اللذات الطيبة واللذات الضارة، وأن من الواجب تربية الطفل على عادة الاعتدال.

كان ثالث الفلاسفة اليونانيين العظام أرسطوطاليس، ناهلا من علم أفلاطون بالفلسفة التى امتزجت بميوله الداخلية فى مجال العلم والطبيعة، عرَّف أرسطو النفس Psyche بأنها الدافع الداخلى الأول فى الكائن العضوى، أى الصورة الفطرية المقدرة لهذا الكائن والتى تدفع نموه وتحدد اتجاهه. ليست النفس شيئا يأتى إلى الجسم من خارجه أو يسكن فيه بل هى موجودة معه فى كل جزء من أجزائه، أى أنها هى الجسم نفسه من حيث قدرته على تغذية نفسه وتنميته وانحلاله. فالنفس بصفة عامة هى جماع وظائف الكائن الحى. النفس فى فكر أرسطو لها ثلاث درجات: نامية، وحاسة، وناطقة. فالنبات يشترك مع الإنسان والحيوان فى النفس النامية، أى قدرته على تغذية نفسه، ويتميز الحيوان مع الإنسان بالنفس الحاسة، أى قدرة الإحساس، ثم يأتى الإنسان وحده بميزة النفس الفاعلة والعاقلة، أى القدرة على التصميم والابتكار والتنفيذ. إن النفس الأخيرة - فى فكر أرسطو - هى جزء من قوة الكون الخالقة وهى الله، وهى بهذا الوصف لا تموت، ولكن هذا الخلود غير شخصى، أى الذى يبقى ويخلد هو القوة لا الشخصية، جاء فى موسوعة "قصة الحضارة" عن أرسطو الفيلسوف: (الله هو صورة العالم أو حقيقته الفعلية... والعلل كلها ترتد آخر الأمر إلى العلة الأولى والتى لا علة لها، كما ترد كل الحركات إلى المحرك الأول الذى لا محرك له، ولا بد لنا أن نفترض وجود أصل أو مبدأ لما فى العالم من حركة أو قوة، وهذا الأصل هو الله. وكما أن الله هو جماع الحركة كلها ومصدرها، فهو كذلك جماع كل غايات الطبيعة وهدفها، فهو العلة الآخرة والأولى).

وأخيراً يمكن بلورة الفلسفة اليونانية القديمة بامتزاج ثلاث نزعات رئيسية وهى: النزعة الطبيعية/الفيزيائية. ونزعة ما وراء الطبيعة/ميتافيزيقية، والنزعة الأخلاقية، وصلت النزعة الطبيعية إلى أقصى مداها - فى ذلك الوقت - فى فلسفة أرسطو، والميتافيزيقية فى فلسفة أفلاطون، أما النزعة الإنسانية

الأخلاقية فكانت من خلال الفيلسوف زينون فى القرن الثالث قبل الميلاد. انتهى تطور النزعة الطبيعية بفصل العلم عن الفلسفة بواسطة أركميديز، وهبارخوس، وانتهت النزعة الميتافيزيقية فى الفلسفة اليونانية بتشكك الفيلسوف بيرو Pyrrho الذى كان أول من اتبع المذهب الشكوكى Skeptic فى القرن الرابع قبل الميلاد، والذى تبع الإسكندر الأكبر فى غزواته لبلاد فارس والهند، لم تنته النزعة الأخلاقية فى الفلسفة اليونانية، وظلت قائمة حتى غلبت العقيدة المسيحية على الأبيقورية والرواقية أو اندمجتا فيها.

انصب البحث الرئيسى فى فلسفة الكون على طريقة تتابع الأحداث، وكيفية تغيير الأشياء عبر الزمان، وفى إذا كان أى شىء يحدث أو سيحدث مرتبط بما سبقه من أحداث وله سبب يحدد حدوثه بالطريقة التى حدثت أو ستحدث ولا يمكن تغيير الحدث إلا بتغيير الماضى السابق على حدوثه. إن الطرق الأخرى لتصور حدوث الحدث تتلخص فى اثنين: أولهما الصدفة البحتة، وثانيهما من خلال صفة وطبيعة الشىء المرسوم له نهايته، أو هدف معين يحويه هذا الشىء ويحدد مساره وتغيراته. يطلق على طبيعة الحدث المحددة نهايته سلفًا بالأسباب النهائية Final Cause، أو بالمسار المحدد سلفًا للوصول إلى نتيجة نهائية معروفة سلفًا. كما تسمى الأحداث فى هذه الحالة بالعمليات الطبيعية التلقائية أو الأحداث الآلية Mechanism.

إن مفهوم الأحداث القائمة على عدم وجود سبب للتأثير، لم ينتشر إلا من خلال أصحاب مذهب الشك مثل الفيلسوف الاسكتلندى دافيد هيوم فى القرن الثامن عشر الميلادى. خلصت فلسفة هيوم فى: (أنه من المستحيل الدفاع من فوق أرضية صلبة على وجود عالم مأهول بأشياء تملك زمام نفسها، ومحكوم بالقوانين الطبيعية والعلمية، ومخلوق من الرب). إن هذه التركيبة فى فكر هيوم تشكل مجموعة من المتناقضات اللاعقلانية - على الأقل بالنسبة لنا نحن البشر. يوجد ثلاث قضايا مهمة مرتبطة بالتساؤل فى موضوع السببية وهى:

**أولا:**

السؤال الخاص بحقيقة وجود حرية الإرادة. إن حرية الإرادة تتطلب سببًا غير مسبب فى عملية اتخاذ القرار بتأنى وبروية، بمعنى أن الإرادة هى سبب للفعل، وأن مبادرة الفعل من خلال الإرادة لا تحدد بسبب سالف. ينقسم الذين يتفقون على حرية الإرادة إلى: حتميين Determinists يعتقدون فى التحديد غير المقصود وغير المعنى. تعتقد هذه الفئة فى حرية الإرادة وحرية الفعل، ولكن الأحداث المحددة ما هى إلا عمليات عرضية غير مقصودة Casual Determination. يوجد فئة أخرى تعتقد فى حرية الإرادة المتماشية والمتوافقة مع الأحداث العرضية الحتمية أى الأحداث غير المقصودة، وأن اختيارنا للفعل ناتج من تأثير الشخصية الفردية للإنسان، والتى تكونت على مدى مسيرته الحياتية من سلسلة التجارب التى مر بها وتفاعل معها.

**ثانيا:**

تتناول القضية الثانية عمليات وتفاعلات الحياة المختلفة، وهل يمكن تفسيرها من خلال القوانين الكونية (من طبيعة وكيمياء)، أو أن الخواص العضوية للحياة تميز وتحدد الظواهر والأمور الحياتية بصفة عامة بما لا يمكن تفسيرها. تشمل هذه العقيدة المذهب الحيوى Vitalism الذى يعتقد فى أن الحياة تستمد كينونتها من المبدأ الحيوى/ البيولوجى ولا تعتمد اعتمادًا كليًا على العمليات الفيزيائية والكيميائية، فالتمييز واضح بين الكائنات الحية والجماد، فالنشاط والحيوية والعمل هو التميز ذاته فى المنظومة الكونية. من أصحاب المذهب الحيوى الفيلسوف البيولوجى الألمانى هانزدريش فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين.

**ثالثـــا:**

تنحصر القضية الثالثة فى السؤال المطروح بين أصحاب نظريات الطبيعة، فى إذا كانت قوانين الطبيعة، والتنبؤ بالظواهر الطبيعية تعتمد على مسببات

كونية، أو أن الظواهر الكونية الكبرى قد تكون ببساطة هى ناتج تجميع احتمالات الصدفة البحتة للحوادث الصغيرة التى تحدث فى الكون الفسيح والزمان اللامتناهى. يسمى هذا الرأى أحيانا بالنظرية الإحصائية فى القانون الطبيعى Statistical Theory of Natural low، والتى ترجع جميع الأحداث إلى الاحتمالات التى يمكن أن تحدث فى الكون.

وفى التاريخ الحديث، وبعد أن أصبحت الفلسفة علما أكاديميا يدرس فى الجامعات والمعاهد العلمية، فقد اتفق الأكاديميون على تحديد الفروع الرئيسية للمناهج الدراسية للفلسفة فى خمسة أفرع:

| | |
|---|---|
| ١- ما وراء الطبيعة / الغيبيات | Metaphysics |
| ٢- نظريات المعرفة | Epistemology |
| ٣- المنطق | Logic |
| ٤- علم الأخلاق / الأخلاقيات | Ethics |
| ٥- الفن الجمالى | Aesthetics |

جرى جدل حول تصنيف الفن الجمالى كفرع من فروع الفلسفة، حيث ذهب بعض الفنانين إلى وضع الفن كجزء من علم النفس بدلا من تصنيفه فى مجال الفلسفة، التى تتعامل معه كانعكاس للقيم. جرى خلاف أيضًا بين الفلاسفة فيما بينهم، وجدل داخلى بين العلماء، لربط الفلسفة بالعلوم، ولكن اتفق الجميع على أنه يمكن اعتبار الفلسفة هى الإطار الذى يتحرك داخله مختلف العلوم بعمومية وليس بتفصيل أو بنظريات، أو معادلات رياضية.

**١- ما وراء الطبيعة:**

يمكن تقسيم موضوع ما وراء الطبيعة إلى علم الوجود Ontology الذى يختص بنظرية الطبيعة ذاتها، وطبيعة الحقائق والواقع، وإلى علم الكون Cosmology الذى يختص بالنظرية العامة لبناء الكون وتكوينه. اشتقت هذه

الكلمة فى اللغة الإنجليزية من الكلمة اليونانية Kosmos بمعنى "جمال السماء". أما علم الوجود فيتعامل مع الحقيقة بذاتها بصرف النظر عن الانطباع الشخصى، ومنظور الفرد الناتج من التجربة. أدخل هذا المصطلح فى الفلسفة فون وولف فى القرن الثامن عشر للتمييز بين الفلسفة الطبيعية التى تتعامل مع أصل وهيكل بناء العالم وطبيعة الأشياء، والفلسفة العقلية - أى علم النفس - والتى تتعامل مع العقل كمسئول على الفكر والسلوك. أما عن طبيعة الأشياء، فيختلف الشعور والإحساس بالشىء عن (ذات الشىء نفسه) الذى ينبه عن كونه ويشير إلى صفته وباحتمال توصيل الحقيقة إلى العقل، أو يظهر - الشىء - بصورة لا يستطيع العقل أن يتبين كنهه وحقيقته. كمثال لذلك: لون الشىء الظاهر للعين والذى لا يدل على أن هذا الشىء الذى نراه له ذات اللون، فالأشياء كلها ليس لها لون ولكن المادة لها خاصية امتصاص بعض ألوان الطيف وتعكس البعض الآخر الذى تراه العين، فيعطى إحساسًا خاطئًا بلون المادة - التى هى فى الواقع عديمة اللون. إن علم الوجود هو تساؤل تأملى عن ما إذا كانت الحقيقة هى كيان واحد مع تنويع ظاهرى وبادٍ لنا، أو أنها كيانات متعددة ومختلفة.

إن السؤال الرئيسى فى علم الوجود ينصب على ما إذا كانت الأشياء الموجودة هى أساسيا شىء واحد، ونهائيا تعود إلى هذا الأساس. إذا كان الجواب بالإيجاب فما كنه هذا الشىء، أو هل يكون العقل كحقيقة Mental Reality، والطبيعة كحقيقة Physical Reality شيئين مختلفين، أو هما شىء واحد من منظور أن العقل هو الذى يخلق صورة الطبيعة.

يتعامل علم الوجود مع نظريات فلسفية عديدة ولكن أهمها ثلاث نظريات رئيسية وهى:

## المادية Materialism

تعنى هذه النظرية فى الفلسفة أن الأشياء المادية التى تملأ فضاء الكون هى فقط الحقيقة المطلقة، أى أن أى شىء وكل شىء يتكون من المادة، أو ناتج من

المادة، وأن التشكيل المختلف للأشياء يحدث وفقًا لكون أصل المادة أو المواد، والتفاعلات أو المزج الذى قد يحدث لهذه المواد. وحيث إن كل شىء أصله مادى، فإن المادة هى السبب والمصدر الوحيد للأحداث وهى التى منها ومن خلالها يحدث التغيير. والإنسان فى المذهب المادى - مثل أى شىء آخر فى الكون - هو كيان فيزيائى بحت، وإن الزعم بأن الإنسان له روح وعقل ليس إلا خرافة صدقها الإنسان. تنسب حقيقة إمكان قيام الإنسان بأفعال مثل الكلام أو الاستدلال إلى مخه وجهازه العصبى العالى الارتقاء، ويحدث الموت عندما يتوقف الجسم - شاملا المخ - عن أداء وظائفه. لا توجد حياة أخرى بعد الموت - فى هذا المذهب - فيما يستمر فى البقاء هو الجزئيات المادية التى يتكون منها الجسم، والتى هى جزء من دورة عضوية فى منظومة كونية أساسها وطبيعتها المادة فقط.

## المثاليـــة Idealism

وتعنى أن العقل/الروح هو الحقيقة المطلقة، وأن الأشياء الأخرى ما هى إلا أفكار تتشكل وتفسر فى العقل، أى أن الكينونة الموجودة هى فقط التى ترتبط بالعقل. فالمثالية هى مذهب تصور العالم المادى كخاضع إلى، أو متصل بالعقل والروح.

## الثنائيـــة Dualism

تذهب هذه النظرية إلى أن العقل والمادة هما فقط اللذان يكونان الحقيقة المطلقة، وأن أى منهما لا ينقص أو يجرد الآخر. إن الكون - فى هذه النظرية - قائم على الثنائيات مثل العقل والمادة، العالم الظاهر وعالم الحقيقة. برزت النظرية الثنائية من الفكر الشرقى القديم الذى كان يؤمن بوجود الخير/الشر، الأنانية/الإيثار، الشيطان/الملاك، باعتبار أن كل زوج منهما حقيقيتان متلازمتان. كانت الثنائية شائعة فى تاريخ الأديان القديم، والفكر الفلسفى الأول. ربما تكون البداية هى التساؤل عن منبع الخير والشر.

هل الخير والشر أصليان؟.. إذا كان الشر ليس أصليًا ولا نهائيًا، ولكن هو فرع من الخير فهذه الحالة لا تعتبر ثنائية، لأن الثنائية تعترف فقط بوجود شيئين أصليين ولا تؤثر أحدهما على الآخر. خرجت من الثنائية مذهب التفاعلية Interactionism، الذى يرى أن العقل والجسم قادران على تبادل التأثير العلى، فإن ما يحدث فى العقل يؤثر فى حركة الجسم، وأن الحركة الجسدية، تحدث إحداثًا ذهنيًا.

يبرز سؤال رئيسى فى قضايا ما وراء الطبيعة خاص بطبيعة الفضاء والزمان، والعلاقة ما بين الزمان والمكان والذى بلورها أخيرًا العالم ألبرت أينشتين فى نظرية النسبية باعتبار الزمن بُعدًا رابعًا مع الأحداث الثلاثة الرئيسية (الطول/ العرض/ الارتفاع). كانت توجد ثلاث نظريات فلسفية تتعامل مع هذه العلاقة، منها أن الزمان والمكان هما كيانان مجردان فيهما توجد الأشياء وتجرى الأحداث، وكل القياسات تنسب إلى الامتداد المطلق للفضاء وأن الحدث ما هو إلا سريان للوقت. ثم جاءت النظرية النسبية لتغير المفاهيم بالنسبة لعلاقة الزمان بالمكان، فإذا تم اعتبار الزمن بُعدًا رابعًا ففى هذه الحالة يضيع مفهوم التسلسل الزمنى للأحداث، حيث يمكن من خلال نظرة شاملة - بزمن صفر - التعرف على جميع أحداث الكون من بدايته وحتى نهايته. يمكن تقريب هذا المفهوم، بتمثيل قوة من خارج الكون تأخذ صورًا متعاقبة ولا نهائية لأحداث الكون من بداية الخلق إلى النهاية، ثم ترصيص هذه الصور - الصورة بجوار الأخرى - مع بداية الأحداث / الخلق، إلى النهاية. فمن خلال نظرة لا وقتية - تؤول إلى الصفر - إلى هذه الصور يمكن معرفة جميع أحداث الكون دون أن يكون للزمن مدلول فعلى.

### ٢- نظرية المعرفة:

تتكون كلمة Epistemology من جزأين، الأول Episteme وهى كلمة يونانية الأصل بمعنى المعرفة، ثم Logia وتعنى المبحث أو النظرية، وعليه فنظرية المعرفة تتناول المعرفة من حيث تكوينها ومصادرها وأساليب

تحصيلها ثم التأكد من صدقها. فى هذا المضمار يظهر التساؤل الأول: هل من الممكن التسليم بوجود معرفة صحيحة لأى شىء/ كل شىء؟

آثار أصحاب مذهب الشك هذه القضية، مشككين فى إمكانية الوصول إلى الحقيقة من خلال البحث والمعرفة. . . . وبفرض صحة السؤال الأول. . . وبفرض تجاوبنا مع أصحاب مذهب الشك - يتبادر إلى الذهن السؤال الثانى الأكثر تعقيدًا: هل هذه المعرفة - كما يدعى البشر - تمتد لأشياء حقيقية و"قائمة بنفسها"، أو قاصرة على ظواهر تظهر لنا فى حدود الإدراك الحسى للبشر، وفى حدود معرفته؟

فى نظرية المعرفة، يُعرف الواقعيون Realists بهؤلاء الذين يذهبون إلى أن "الأشياء" كما نعرفها هى كما توجد فى الحقيقة، ولا تعتمد على عقولنا. أما أصحاب المذهب الظاهرى Phenomenalism فهم الذين يعتقدون فى أنه ليس بإمكاننا اكتساب المعرفة للواقع المطلق، ولكننا ما نعرفه هو فقط من خلال الإحساس الظاهر والبادى لنا، والمتمثل فى العقل، والمنقول إليه من خلال حواسنا، أو صورة ذهنية بحتة مثل الأحلام. كان السفسطائيون الإغريق هم أول من اعتنق مذهب الشك، أما فى العصور الحديثة فقد ظهر الفيلسوف الإسكتلندى دافيد هيوم فى القرن الثامن عشر واصفًا العالم بأنه صور ذهنية منتظمة ومتعاقبة، حتى عقلنا ما هو إلا مجموعة من الخيالات التى تتعاقب بسرعة فى حركة مستمرة حتى نهاية الجنس البشرى. شارك الفيلسوف الإنجليزى هوبرت سبنسر فى القرن التاسع عشر، الفيلسوف الألمانى إيمانويل كانط فى اعتناق المذهب الظاهرى.

كان كانط يعتقد أن "نقد العقل الخالص" Critique of Pure Reason يهدم كل النظريات الميتافيزيقية وكذلك النظريات اللاهوتية، بشرط أن يبنى النقد على أساس علمى. أما سبنسر فقد طور نظام فلسفى يتماشى مع "مبدأ المنفعة كهدف للإنسان للوصول إلى السعادة" والذى تبناه الفيلسوف الإنجليزى جيرمى بينتام فى القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر، ومتماشيًا أيضًا مع

نظرية النشوء والتطور للعالم الإنجليزى تشالز داروين. كان سبنسر أول من صاغ تعبير "البقاء للأصلح" The Survival of the Fittest.

اتفق الواقعيون مع الظاهريين على وجود واقع مطلق Absolute Reality واختلفا فقط فى إمكان معرفة الطبيعة المطلقة. إذا كان المذهب المثالى يذهب إلى عدم وجود حقيقة خارج نطاق حدود العقل فإنه ينقسم إلى قسمين، الأول يرجع وظيفة المعرفة الحقة إلى العقل والأسباب، والثانى يعتقد فى أن الإدراك الحسى هو فقط أساس المعرفة وأن المعرفة كلها مستمدة من التجربة. اعتنق الاتجاه الأول الفيلسوف الفرنسى رينيه ديكارت. والفيلسوف الهولندى باروخ اسبينوزا، أما الاتجاه الثانى فقد آمن به الفلاسفة البريطانيون جون لوك، وجورج بيركلى، وديفيد هيوم، أما كانط فقد كان يعتقد فى صواب الاتجاهين للوصول إلى المعرفة الحقة.

كان الاتجاه الفكرى فى القرن العشرين - خاصة عند البريطانيين والأمريكان - نحو تغطيته لجميع الأمور المتعلقة بنظريات المعرفة، وتلخيصها فى النقاط التالية:

- يوجد نوعين من المعرفة، الأول المعرفة التى تأتى من غير مرجع لحوادث معينة أو خبرات مسبقة أو ملاحظات حسية، والثانى المعرفة التجريبية القائمة على الملاحظة والإثبات.
- كل معارف العلوم الطبيعية تعتمد على الملاحظات الحسية لتأكيد صحتها، ولكن فى بعض العمليات الرياضية والمنطقية يمكن اكتساب المعرفة بدون الملاحظات الحسية.
- إن التأكيد النظرى للمعرفة لا يأتى إلا فى مجال العمليات الرياضية والمنطقية. ويمكن الوصول إلى درجة ثقة مقبولة وكافية - فى حالات الأغراض العامة - من خلال المعرفة العامة Common Knowledge للعالم الخارجى، وكذلك من خلال العلم الطبيعى بصفة عامة. أما التأكيد فلا يأتى إلا عن طريق التجربة العملية.

## المنطـــق:

اشتقت كلمة المنطق من النطق، وهـو نوعـان، الأول: نطق خارجى وهو اللفظ، والثانى: نطق داخلى وهو الفهم والإدراك. أصبحت كلمة "المنطق" فى الاستعمال الشائع مرادفة لعلم المنطق والتفكير العقلانى، أو الحدس والاستدلال. يعتبر الفيلسوف اليونانى أرسطو مؤسس علم المنطق، وأرسطو هو تلميذ الفيلسوف أفلاطون، ومعلم الفاتح المقدونى الإسكندر الأكبر. يختص علم المنطق بالعمليات الفكرية، والقوانين والشروط الضرورية للوصول إلى حكم سليم يقبله كل مفكر عادى. المنطق أيضًا فن يعلمنا كيفية التفكير لكى نميز ما بين خطأ الفكر وصوابه، وإلى محاولة الوصول إلى الحقيقة. المنطق ليس جزءًا من علم، وإنما هو علم مستقل بقوانينه ومبادئه، ومعيار ومنهج لكل العلوم.

كانت الفلسفة قديمًا تقوم فقط على التفكير المنطقى والتخمينات حول الأشياء المعنية بالبحث والمشكلات العامة والمواضيع الأخلاقية. لم يكن الفيلسوف يعتمد على الخبرة والمشاهدة، بل على التفكير المجرد والتأمل الباطنى دون أن يستند تحليله واستنتاجاته على الاختبار والقياس. أما فى الفلسفة الحديثة فإن الفكرة تتفاعل مع المشاهدة والقياس. إن تطور الحضارات عبر تاريخ الإنسان أدى إلى زيادة قدرات العقل، وتطور طرق تفكيره وتحليله للأمور وللمشكلات، فأصبح العقل الحر - المنطلق خارج قيود الأساطير والخرافات - يعتمد على التحليل الموضوعى والمنهجى دون أى تقيد بآراء السابقين. قامت ثورة العقل فى أوروبا فى القرن السابع عشر على مقولة الفيلسوف الهولندى باروخ اسبينوزا: (إذا غاب العقل ظهرت الخرافة، وإذا سادت الخرافة ضاع العقل).

يتعامل منهج المنطق مع قواعد الاستنتاج الصحيح والمواضيع المتعلقة به. يستخدم العقل البشرى عملية الاستنتاج/الاستدلال Inference لينتقل من قضية عامة يفترض صحتها إلى عملية أخرى جزئية مترتبة عليها. وينقسم منهج المنطق بصفة عامة إلى موضوعين رئيسيين:

- **المنطق الاستنباطى** Detuctive Logic

يعرف المعجم الفلسفى الذى أصدره مجمع اللغة العربية المنطق الإستنباطى فى الفقرة التالية: (انتقال الذهن من قضية أو عدة قضايا هى المقدمات إلى قضية أخرى هى النتيجة وفق قواعد المنطق. وليس بلازم أن يكون انتقالا من العام إلى الخاص أو من الكلى إلى الجزئى - ومن أوضح صوره البرهنة الرياضية، وفيها انتقال من الشىء إلى مساويه، بل من الأخص إلى الأعم). تشير الموسوعة الفلسفية المختصرة إلى المضمون نفسه: (أحد مصطلحات المنطق، ويستخدم ليشير إلى البراهين التى إذا صدقت مقدماتها، فلا بد أن تصدق نتائجها بدورها من الوجهة المنطقية).

يتعامل المنطق الاستنباطى مع المجادلات التى يكون الغرض منها الشرح والإيضاح، وبحيث تكون المقدمة الأولية مطلوبة للوصول إلى النتيجة. فمثلا إذا كان الماس - فقط - هو الذى يستطيع أن يخدش الزجاج، فإذا كان حجر الخاتم الذى مع السيدة لا يخدش الزجاج، فإن هذا الحجر ليس مصنوعًا من الماس.

- **المنطق الاستقرائى** Inductive Logic

تعرف موسوعة علم النفس والتحليل النفسى المنطق الاستقرائى فى: (هو حكم على الكل أو العام من الحكم على مجموع الأجزاء المتضمنة فيه، وذلك التام باعتبار هذا الحكم قائمًا فى كل جزء من الأجزاء، وهذا يسمى الاستقراء التام، أو باعتبار الحكم منسحبًا على معظم الأجزاء ويسمى الاستقراء المشهور

أو الناقص. وهو أسلوب البحث العلمى فى الوصـول إلى الحقيقة، فهو يبدأ باستقصـاء الجزئيات مستدلا منهـا على الحكم الكلى الذى نستخلـصه بطريقة علمية ومنهجية خاصة، ذلك أنه من المستحـيل واقعيا أن نستقصى كليا جميع مـفردات الـكل فـى جمـيع الأحـوال، وتحت كـل الظـروف، ولذلك فـإن الاستـقصاء الكلى أو الـتام أمر صعب، إن لـم يكن فى بعض الحالات غـير ممكن، ولذلك يسـمى بالاستقراء الصـورى... وهكذا فإن الاستقـراء بصفة عامة هو عمـلية منطقية تمكننا مـن استخراج مبادئ عامـة أو أحكام عامة من فحص أو قراءة حالات جزئية).

لا تتأكد النتيـجة فى المنطق الاستقرائى من المقدمـات أو الحقائق الأولية. فمثلا قد تجد الشـرطة أداة القتل مع المشتبه فيه، وأن المشتبـه فيه قد يكون قد تعارك من قبل مع المجنى عليه، ولكن ما زال يـوجد احتمال ألا يكون المشتبه فيه هو الجانى. يؤكـد الشكل الاستنباطى للاستنتاج علـى أن درجة المصداقية العقلانيـة تضـاهى درجـة المقدمـات المنطقيـة، وبالتالى تتأكـد النتيجـة كيقين لا شك فيه، إذا كانت المقـدمة المنطقية مؤكدة فيهـا ولا تدعو للشك. تعرف المقدمة المنطقية Premise كما جاء فى موسوعة علم النفس والتحليل النفسى: (افتراض عقلى تبنى على أساسه استنتاجات منطقية تلزم عنه. وقد يكون هذا الافتراض قولا موجـبا مثل إسناد حكم إلى شىء أو فرد أو قـولا سالبًا لحكم عن شىء أو فرد، كما قد يكون حكمًا كليًا على جميع أفراد النوع، أو جزئيًا على عدد منهم، سواء بالإيجاب أو بالسلب).

بدأ التطور الـتنظيمى والتصـنيفى Systematic Development للمنطق الاستـنباطى بـواسطة الفـيلسوف الإغـريقى أرسطو، ثـم بعد ذلك بـواسطة الرواقيين Stoics وعلى رأسهـم الفيلـسوف الإغريقى زينون عام ٣٠٠ ق.م. ذهب الرواقيون إلى أن الإنسان الحكيم يجب أن يتحرر من الانفعال، ولا يتأثر بالفرح أو الترح وأن يخضع بدون تذمر لحكم الضرورة القاهرة. اشتقت كلمة

رزين Stoical من المعنى السابق شرحه للإنسان المتوازن نفسيا فى كل من حالات السعادة أو التعاسة، فالظروف/ الصدفة قد تحتم موقفًا قد لا يستطيع الإنسان أن يغيره، ومن ثم يجب على الإنسان أن يرضى ويقنع بالواقع القائم، بدأ فلاسفة العصور الوسطى - ثم انتشر فى العصور الحديثة - تقديم وتطبيق المنطق الاستنباطى/ الاستنتاجى/ الاستدلالى فى العلوم بصفة عامة، خاصة العلوم الرياضية والإحصائية.

## علم الأخلاق

يرتبط علم الأخلاق - بصفة عامة - بمعايير السلوك البشرى التى يتحدد من خلالها الرضا والقبول عن موقف معين أو رفضه، احترامه أو إدانته. تسرى هذه المعايير على المجتمع لتشكل ميثاقًا شرفيًا يحاول الجميع الالتزام به، ويعتبر من يشذ عليه خارجًا عن العرف السائد فى المجتمع. ربما أيضا تنطبق بعض من هذه المعايير على بعض الممارسات المهنية لمجموعة معينة من المجتمع. وتعتبر كلمة Moralis هى الأصل اللاتينى لكلمة "أخلاق"، وقد صاغ السياسى والخطيب الرومانى القديم شيشرون ترجمة للكلمة اليونانية mores بمعنى عادات.

تتلخص القضية الأولى للأخلاق فى التساؤل التالى: هل توجد أرضية صلدة لتأكيد توصيل معنى الصواب والخطأ، أو هل توجد أساسيات وقيم مطلقة للسلوك السليم؟

ذهب الكلبيون Cynics أتباع الفيلسوف الإغريقى سقراط فى القرن الرابع قبل الميلاد إلى أن الفضيلة Virtue هى الخير الأوحد، وهى أقصى درجات السلوك، وأن جوهرها ضبط النفس، وأنه من السخرية والتشائم أن يعتقد البعض أن المصالح الفردية/ الشخصية هى وحدها التى تهيمن وتوجه السلوك الإنسانى.

فى نظرية الأخلاق يتساءل الفلاسفة أولا عن كيفية تحديد الفعل الصحيح، ثانيا عن نهاية هـذا الفعل أو بأكثر تحديدا: مـا هـو الخير الأسمى Summum Bonum الذى ينسب اليه، أو يحدد طبيعة الفعل، وإذا كان صواب أو خطأ. أيضًا تتناول النظريات الأخلاقية قضية: الإيثار وحب الآخر والتضحية فى سبيل المجتمع Altruism، مقابل الأنانية وحب الذات Egoism وإشباع الشهوات والسعى وراء الحصول على الاحتياجات الفردية وتحقيق السعادة الشخصية واللذة الجسدية. دافع عن مبدأ أنانية الجنس البشرى المفكر الإنجليزى جيرمى بينتام - فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر - الذى كان يعتقد فى أن البشر بطبيعتهم النفسية وتكوينهم الجينى/الغريزى يسعون دائمًا لتحقيق مصالحهم الشخصية.

يمكن تقسيم النظريات الأخلاقية طبقًا للدافع أو السبب الذى يفرض السلوك الأخلاقى ويفرق بين الصواب والخطأ إلى:

*** العقيدة الدينية / الخضوع لإرادة الرب Authoritarian Theory**

وفيها يلتزم الفرد بالشرائع السماوية والقوانين المنصوص عليها فى الكتب المقدسة، فما أباحه الكتاب المقدس المنزل من السماء هو الصواب، وما حرم علينا فهو الإثم والخطيئة.

*** المذهب العقلانى / المنطقى Rationalistic Theory**

تقر هذه النظرية أن العقل هو فقط الحكم والفيصل فى تعريف الصواب والخطأ، وهو الموجه لسلوك الفرد والمحرك لأفعاله والدافع لأعماله.

*** المذهب الحدسى Intuitionism**

تذهب هذه النظرية إلى أن القيم والواجبات الأخلاقية يمكن إدراكها بالبداهة والحس العام Common Sense، "فالصواب بيِّن والخطأ بيِّن" دون إجهاد النفس أو العقل فى الرجوع إلى الكتب السماوية أو إلى احتكام العقل والمنطق. أيضا يؤمن هذا المذهب بالأخلاق الفطرية، وأن القيم والواجبات الأخلاقية يمكن إدراكها بالبداهة.

### * النظرية الانفعالية / العاطفية Emotive Theory

هو تملك الشعور (فقط دون العقل) بأن السلوك الأخلاقى هو سلوك مستحسن من الفرد ذاته - لإشباع رغبة داخلية، أو مستحسن من المجتمع، مما يعود على الفرد بعائد أو فائدة على المدى القريب أو المدى البعيد، حتى لو كانت هذه الفائدة لا تتعدى الإرضاء والارتياح الذاتى.

توجد مذاهب أخرى من الصعب تصنيفها فى النظريات السابقة مثل ما ذهب إليه المفكر البريطانى جون ستيوارت مل فى أن إدراك المفاهيم الأخلاقية ينبع من مبدأ الألم/ اللذة، ولكن أيضًا يتجه الفرد نحو السلوك الأخلاقى مع الآخرين كنتيجة للتفكير العقلانى الرشيد الذى يقنع صاحبه باتخاذ المسلك الأخلاقى الذى من خلاله يستطيع أن يتعايش مع المجتمع ويستفيد منه. أما إذا نسبنا النظريات الأخلاقية إلى معيار الخير الأسمى، فإن التصنيف يأخذ مجرى آخر فى اتجاه التقسيمين التاليين:

### * مذهب المتعة Hedonism

الذى يذهب إلى أن اللذة هى الخير الأوحد والأسمى، كما أنها هى الهدف الرئيسى للحياة. تحت هذا التصنيف أيضًا يقع مذهب السعى نحو تحقيق السعادة Eudaemonism الذى يذهب إلى أن التماس السعادة هى أساس السلوك الأخلاقى ومحكا لها. فى كثير من الأحيان يترادف المذهبان: اللذة / السعادة، ولكن أيضًا قد لا تعنى السعادة الحصول على اللذة.

### * مذهب الكمال Perfectionism

الذى يذهب إلى أن الارتفاع بالخلق إلى مرتبة الكمال هو أسمى الغايات الأخلاقية، وأنه فى الإمكان التحرر من الآثام والخطايا التى يقترفها الإنسان فى الحياة الدنيا برفض كل ما دون مرتبة الكمال فى السلوك الأخلاقى. اعتنق الفيلسوف الألمانى كانط فكرة اندماج السعادة مع الكمال، فمن أجل الوصول إلى نهاية الخير أو ما يسمى بالخير الأسمى والأعلى يجب أن يغمر الإنسان

الشعور بالسعادة خلال رحلته للوصول إلى الكمال ليعيش الإنسان حياته بالسعادة مع الكمال. يعنى الكمال فى الأخلاق، المبادئ العامة التى تعتبر أساساً للأخلاق كغاية فى ذاتها والتى ينبغى أن يكون السلوك الإنسانى نابعًا منها ومستهديًا بمعاييرها. أما فى الفن فالكمال يعنى ذاتية الفن النائى عن المحاكاة والتقليد، والهادف إلى النزعة الجمالية والتعبيرية، والجامع للمضمون مع الإبداع.

كانت أكثر النظريات الأخلاقية تأثيرًا فى النصف الأول من القرن العشرين هى نظرية الحدسية Intuitionism المرتبطة باسم جى مور، وبريشارد، والنظرية العاطفية/الانفعالية Emotivism التى كان المتحدث الرسمى عنها هو ستيفنسون، ونظرية الفرضيات المسبقة Prescriptivism والتى كان المدافع الرئيسى عنها هو آهار. على الرغم من وجود فروق كثيرة بين هذه المذاهب، إلا أنها تنطلق من المبحث الأخلاقى، ولها طابع أخلاقى ميتافيزيقى Meta-Ethical. إن الهدف الأساسى من هذه النظريات هو إجراء الأبحاث بغرض التوصل إلى مجمل القواعد المنطقية التى تحكم استخدام التعبيرات الأخلاقية فى أى مذهب أخلاقى. أما نظريات الأخلاق المعيارية Normative Ethics فهى تبحث فى مضمون الأخلاقيات، وغاياتها وفضائلها ورذائلها ومبادئها، وتبحث فى الكيفية التى يمكن أن تتآلف بها المتطلبات الأخلاقية أو تتصارع، كما تبحث فى كيفية توضيح الصراع الأخلاقى وأسلوب الوصول إلى حل هذا الصراع.

انطلق فى النصف الثانى من القرن العشرين مذهب المنفعة Utilitarianism الذى كان مصدرًا للتأملات الأخلاقية. لم تتمكن الفلسفة، مع النظريات الاقتصادية أن تحدد بدقة عالية معنى القيمة Value. لم يغن تحليل وتحديد "القيمة" الأخذ بفلسفة تحليل التكلفة/العائد Cost /Benefit Analysis التى مهما كانت أوجه القصور التى تشوبها، إلا أنها تطرح طريقة لتحويل القيم الغير كمية إلى قيم كمية.

صدر فى الربع الأخير من القرن العشرين بحث للفيلسوف سيدجويك عن مناهج الأخلاق The Methods of Fthics، كمحاولة للمزج ما بين مذهب المنفعة والمذهب الحدسى Intuitionism الذى يؤمن بالأخلاق الفطرية. خلص البحث إلى فقدان الثقة فى الأحكام القائمة على الفطرة أو الحس العام الفطرى Common Sense، مع إعطاء قدر أعظم من التقدير لأخلاقيات نهاية الألفية الثانية القائمة فى معظمها على التعددية الأخلاقية.

## ٥- علم الفن الجمالى

جرى الكثير من الجدل حول المدى الذى يعتبر فيه علم الفن الجمالى فرع من أفرع الفلسفة، ولكن يمكن للفلسفة تناول الموضوع من منظور تقدير قيمة الشىء من حيث جماله أو سوئه، أو إلى أى مدى يتأهل الموضوع للمكافأة والتقدير والاستحسان، أو للشجب والنقد والاستنكار. تنوعت وتعقدت نظريات تناول علم الجمال فى الفلسفة، ولم تأخذ النظريات شكلاً ملموسًا وراسخًا على مدى القرون الطويلة لملعب الفلسفة. يذهب الفلاسفة إلى أن الجمال هو: رضاء/ إعجاب/ قبول/ جاذبية شخصية تختلف من فرد لآخر وفقًا للحالة الشخصية الفردية، وللحالة النفسية للفرد وقت تقييم الموضوع. تشترك الثقافة العامة للمجتمع أيضًا مع الشخصية الفردية فى وضع معايير ومقاييس للشكل الجمالى.

إن المصطلحات التى تستخدم فى إيجاد معنى للقيمة الجمالية والأخلاقية يصعب تفسير معناها بخلاف المجالات الأخرى التى تفهم فيها معنى القيمة بشكل صحيح ودقيق، مثل الاقتصاد، والتكنولوجيا، والقانون، والمنطق. شرح أوليفرليمان فى كتابه "مستقبل الفلسفة فى القرن الواحد والعشرين" غموض استخدام مصطلح القيمة فى النواحى الجمالية: (مصطلح قيمة Value فى حد ذاته هو أحد المصطلحات الذى يمكن أن نوظفه بشكل مختلف. فربما ينقل قيمة شىء أساسى أو ترتيب قيمى. فالقيمة الاقتصادية عادة ما نفكر فيها بهذه الطريقة الكمية، وربما تنسب القيمة. فنحن نصف

فعل شخص ما على أنه فعل "شجاع" أو قطعة موسيقية على أنها "شجية". ومن ناحية الفلسفة القيمية Axiologically - الإكسيولوجى هو فرع الفلسفة الذى يتعامل مع القيم مثل القيم الأخلاقية والجمالية والمنطقية -، ويمكن أن يقال أن قيمة "الإجازة" (العطلة) تكمن فى "التحرر من الروتين"، أو إن قيمة الزواج فى "الصحبة" وجدير بالذكر أنه على الرغم من الاتفاق بشكل عام على أن الشىء إذا انفصل عن سماته الجمالية لا يكون له قيمة عملية، إلا أن بعض ردود الأفعال (العاطفية) التى تتجمع من خبرتنا من الكثير من "الفنون التمثيلية" قد تشكل نوعًا من التعليم الأخلاقى، والحقيقة هى أن العمل الفنى الذى يمتلك هذه القوة، يصدق أو يشهد على المهارة الموظفة فى تصميمه، فتصوير شخصية ما أو تمثيلها يمكن أن يصنع نوعًا من الوهم يكون نجاحه مسجلا فى المقابل بين رد فعلنا تجاهه والحقيقة التى يمثلها. وهكذا، فمع التأثير التحذيرى الذى تبذله فلسفة العقل، فإن المقارنات بين الخبرة الأخلاقية والخبرة التقديرية للفن، يمكن أن تكشف عن مصدر التنوير المتبادل).

كان مفهوم الفيلسوف الإسكتلندى دافيد هيوم للجمال من منظور اللذة: (لو تأملنا جميع الفروض التى وضعت لتفسير الفرق بين الجمال والقبح، لوجدناها كلها تنحل إلى أن الجمال نظام تركيب للأجزاء، مهيأ لإعطاء اللذة والرضى النفسى، أما بسبب التكوين الفطرى لطبائعنا، أو بسبب العرف، أو بسبب النزوة العارضة... فاللذة والألم إذًا ليسا مرافقين ضروريين فحسب للجمال والقبح، ولكنهما يكونان جوهرهما ذاته؟ ... وما الجمال إلا شكل يحدث اللذة، كما أن القبح بناء للأجزاء يحدث الألم).

من منظور آخر ومن أجل التوفيق بين الفن والأخلاق، كتب الفيلسوف الأمريكى جون ديوى: (لو أن الفن نظر إليه كقوة معترف بها فى الجماعة الإنسانية، بدلا من أن يعامل كوسيلة للترفيه والإمتاع فى بعض اللحظات، وكوسيلة للعروض المظهرية، ولو أن الأخلاق قد فهمت على أنها متماثلة هى

وأى جانب من جـوانب القيمة التى تشـارك فى التجربة، لما وجـدت مشكلة خاصة بالعـلاقة بين الفن والأخلاق). إن الفن جزء من ثقـافـة أى حضـارة، لا يعـرف التنبـؤ والتـخطيط والإحـصائـيات، ولا يتـبع القـواعد والمـواعظ والتعليـمات، هو فقط نبض إحسـاس ومشاعر المجتمـع نحو البيئة، ونتـيجة لتفاعلات عناصر المجتمع: الفردية والجماعية.

## المذاهب والنظريات الفلسفية

### حرية الإرادة والحتمية Free Well and Determinism

فكران مختلفان ومتضادان فى الفلسفة، معنيان بأصل الأحداث والسلوك البشـرى. بالنسبة للـحتميين أو الجـبريين Necessitarian فإن أى حدث هو حادث وأى شىء قـائم هـو موجـود بـالضـرورة وليس فى الإمكـان تجنبه Inevitable أو منع حـدوثه، فالحـدث ناتج من أسـباب/ علـل، أو ناتج من أصل مجرد Abstract Principle، ولا يمكـن أن يكـون غير ما هـو عليه، ولا يمكن أن يحـدث غير مـا يحدث. أمـا بالنسبـة لليبـراليين Libertarian أصحاب مـذهب حرية الإرادة، فإن الفعل الإنـسانى هو فعل مسـتقل بذاته، وناتج من أسباب أو عوامل داخلية تخص الذات الفردية، ويحدث هذا الفعل نتيـجة اختيار إرادى بحـت من عدة اختيارات تـتشكل أمام الفرد مـن تفاعل شخصيته والخبرات المكتسبة من البيئة والمجتمع الذى يحيا فيه.

إن الجبرية التـى تحدد مصير العالم وتـسير أحداثه - فى كثـير من الفكر الشـرقى القـديم والحديث وفـى الفكر الإغـريقى الـقديم، وفى المـعتـقدات اللاهوتية الغربية - هى قدر مبهـم وغامض بالنسبة للبشر، أو هى إرادة الإله الخالق. وعليه فليس فى قدرة الإنسـان فهم وإدراك عناصر ومظاهر الكون أو التحكم فيه وإدارته، فالقدر وحده (القدرية Fatalism) هو الذى يسير الكون ويشكل أحداثه. تقوم قـواعد الحتمية فى الفلسفة الغربـية على أسباب وعلل

وافية وكافية، يمكن أن تفسر سبب حدوث الحدث، وعليه فإنه يوجد فى هذا العالم إدارة عقلانية، وإلى حد ما يستطيع الإنسان بتفكيره العقلانى المشاركة فى هذه الإدارة. وبذلك تكون الفلسفة الحتمية فى الثقافة الغربية قد طورت نظرية الحتمية القدرية من المفهوم الشرقى إلى حتمية راجعة إلى مصدرين: الأول من أسباب خارجية Extrinsic نابعة من الظروف المحيطة، والثانى أسباب ذاتية Intrinsic من داخل ذات الإنسان.

من منظور الاتفاق والاختلاف بين الحتمية والجبرية، كتبت الدكتورة يمنى الخولى فى كتاب "العلم والاغتراب والحرية": (إن الحتمية تطوير للجبرية، غير أنه تطوير جوهرى يجعلها تفترق عنها افتراقًا بينًا. . . ، فالجبرية تعنى أن ما يحدث قد قدر أزلا وكان حدوثه محتومًا، غير أنها نتيجة للقول بقدرة الله على كل شىء، وإحاطته علمًا بالأشياء كلها، ومعنى هذا أن ما يحدث إنما يحدث وفقًا لإرادة الله، وأن المستقبل إذا كان داخلا فى علمه تعالى، كان حدوثه بحسب علمه واجبًا. الجبرية إذًا تعلق ضرورة حدوث الأشياء على مبدأ أعلى منها يسيرها. إنها ضرورة متعالية، والكون نظام مفتوح عليها، على الله، أما الضرورة فى الحتمية العلمية، فكامنة فى قلب الأشياء السارية فيها، وهى الطبيعة ذاتها، فالكون نظام مغلق على نفسه مستكف بعلله الداخلية. لذلك فأحداثه حتمية، لا بالنسبة لأمر خارق للطبيعة، بل بالنسبة للطبيعة ذاتها ولقوانينها الفيزيائية، وهذه القوانين وإن كانت لا تقل فى صرامتها عن المصير الجبرى، فإنها عمياء لا تستجيب لدعاء ولا تحابى الناس أو تكرههم. . . وبينما تجعل الجبرية المستقبل هو الذى يحتم الماضى عن طريق الغاية، تجعل الحتمية الماضى هو الذى يحتم المستقبل عن طريق العلة، . . . إن الحتمية مبدأ عقلانى أولا وأخيرا، ولن تتفق معه أية محاولة لشرح الظواهر الفيزيقية بردها إلى العناية الإلهية والأرواح المبرأة من الأجسام، لأن طبيعة هذه الكيانات - التى قد تتسع للجبرية - ليست محددة بما يكفى لاستنباط نتائج تجريبية منها. هذا التحديد المطلق الذى تشترطه الحتمية ينتفى مع

الجبرية، فالإرادة الإلهية مثلا يمكن أن تفسر كل شيء سواء حدث بهذه الطريقة أو تلك، بحتمية أو بلا حتمية. الحتمية العلمية بهذا تستبعد الأشباح والقوى السحرية والتأثيرات الفائقة للطبيعة، لتعنى أن كل الظواهر الطبيعية تعتمد فقط على شروط مادية، وأنها أيضًا لتنكر على هذا الكون العواطف والخيالات والأفكار، وكل الأحداث العقلية البحتة وكل ما هو لا مادى، وجميعها كيانات يسهل استنباطها من الجبرية).

تشكل العلية Causality محور الخلاف بين الجبرية والحتمية، والعلية، كما عرفتها د. يمنى الخولى فى المرجع السابق: (يعنى أن كل حادثة أو ظاهرة فى الكون لها علة أحدثتها، ولكل علة معلول ينشأ عنها. حوادث هذا الكون تسير فى تسلسل علِّى. كل ظاهرة علة للظاهرة التى تليها، ومعلول للظاهرة التى سبقتها والعلة توجب معلولها، أى أن حدوث العلل ذاتها يوجب حدوث المعلولات والنتائج ذاتها وبهذا تكون الضرورة محيطة بالأشياء كلها، والأحداث تحدث فى أنماط منتظمة. يمكن صياغتها فى قوانين. وعلى أساس من هذه القوانين ومن العلل الفعلية، يمكن وضع تنبؤاتنا، هو فقط نقص معرفتنا بالعلل والقوانين). إذا كانت العلية هى عملية تسلسل من الماضى إلى الحاضر، ثم إلى المستقبل، فهى ترفض النظرية الغائية التى تذهب إلى أن الغاية المستقبلية هى التى تحتم الماضى، ولكن كل من المذهبين - الغائى والحتمى - يتوصلا إلى نفس النتيجة بتحديد الحدث ورفض احتمالية الأحداث.

ذهب الحتميون إلى وجود نوعين للحتمية الداخلية وهما الحتمية المنطقية العقلانية، وحتمية علم الوجود ونشوء الكون وهو خاص - فقط - بالرب الخالق. يتشكل النوع الأول من أصحاب الفلسفة الرواقية معتنقى مذهب قبول حكم الضرورة القاهرة، والحقيقة البديهية Truism، وبأن (ما سيكون سوف يكون) (What will be will be)، يضيف الفلاسفة المتدينون إلى الجملة السابقة: (الخالق دائمًا يعلم ما سيكون). يعتبر النوع الآخر من الحتمية

الداخلية خاص بعلم الوجود، وتأكيد وجود الخالق كما يؤكد على أن الخالق هو الكمال المطلق، وهو السبب الأصيل فى حتمية جميع الأحداث. أما بالنسبة للحتمية العارضة / غير الجوهرية فهى تقوم على قاعدة: إن كل شىء أو أى حدث، له سبب مختلف عن ذاته. وحيث إن الأسباب المتشابهة لها تأثيرات متشابهة فإنها تؤدى إلى انتظام وتناسق فى الطبيعة، كما تؤدى إلى نشوء القوانين الطبيعية (Lows of Nature).

غالبًا ما يسلم الفلاسفة بمذهب الأسباب الغائية Final/Teleogical والتى ترجع الأسباب الى الوصول إلى غاية نهائية من أجلها هى قائمة وموجودة. عادة ما يسمى النوع الثانى من الحتمية بالحتمية السببية، والتى تفسر فى صورتها المثالية تنظيمات لعناصر مختلفة تتشكل بها القوانين الطبيعية، أى أنها شكل من أشكال الآلية الطبيعية Natural Mechanism. فى المذهب الآلى يتشبه الإنسان بالآلة التى تتحرك بآلية من خلال نظام حتمى، محدد بدايته ونهايته، أو كما قال الفيلسوف الرياضى لبلاس: إذا وجد إنسان له عقلية رياضية مذهلة وتعرف على مكونات الكون والحدث الأول فى الخلق فإنه يستطيع معرفة جميع الأحداث اللاحقة حتى النهاية.

لم يتأثر إيمان أصحاب مذهب الحتمية الصرفية بوجهة نظر الفيلسوف دافيد هيوم عن طبيعة السببية، أى أن لكل سبب مسببًا ولكل مسبب سببًا، بينما وافق معظم فلاسفة العلوم على مقولة هيوم بأن القانون العام لطبيعة المنظومة الكونية غير قابل للتطبيق فى جميع الظروف أو لكل الحالات، وأنه غير حاسم وخاضع للاختيارية من خلال التجربة. بالإضافة على ذلك، فقد دافع هيوم بحماس عن وجهة نظره مجادلا بأن الحتمية السببية يمكن تطبيقها أيضًا على المنظومة البشرية كسلوك. ذهب علماء الفيزياء، معتنقى نظريات اللاحتمية، بأنه لا يوجد فى الكون أى منظومة تتبع التناسق التام أو الانتظام الكامل، ولكن كل شىء خاضع للتقريب أو إلى قوانين الإحصاء الاحتمالية. زاد هذا الاعتقاد بعد ظهور نظرية الكم Quantum Theory فى الفيزياء

النووية فى بدايات القرن العشرين، والتى تنص على أن انبعاثات الطاقة أو امتصاصها من قبل الذرات أو الجزيئات لا تتم على نحو متواصل ولا على نحو متماثل، ولكن على مراحل وعلى شكل كمات Quanta غير متماثلة زمنيا، يشوبها العشوائية Randomness وتخضع للنظريات الاحتمالية Probabilistic Theories.

ينبع اقتناع كثير من البشر بحرية الفعل والإرادة والاستقلال الذاتى من مصادر عديدة ومختلفة، يعتبر الدين واحدًا من أهم المصادر الرئيسية للتحرر من أغلال الحتمية المقيدة لحرية الإنسان فى الاختيار. فإذا لم يكن الإنسان حرًا فى اختياره، وإرادته، فليس من المنطقى أن يحاسب فى الآخرة.

تنادى الفلسفة الوجودية أيضًا بالحجة البديهية والرئيسية لفلسفة الإرادة الحرة فى أن: إذا لم يكن للإنسان حرية الاختيار الحقيقى والفعلى، فإنه لن يكون له حرية الفعل/ رد الفعل المختلف والمتنوع فى الظروف المشابهة والمتماثلة، وبذلك يجب ألا يخضع الإنسان للتأنيب، أو المديح والإطراء، أو أن يقاسى من تأنيب الضمير والندم Remorse، أو اتهامه بالسخف والحمق. لن نستطيع فى هذه الحالة اتهام أحد بأنه وغد Scoundrel أو غير أخلاقى، أو معاقبة أى انسان عن فعل خارج أو عمل غير رشيد، أو الاتهام بالإجرام والعدوانية.

أثار الليبراليون سؤالين أساسيين فى الأطروحة السابقة:

* هل الحتمية حقًا تتعارض مع المسئولية الأخلاقية؟

إذا كان الجواب بنعم يظهر السؤال الثانى:

* أليس من الأجدى أن نتخلى عن الحتمية بدلا من عدم الاقتناع بالمبادئ الأخلاقية؟

تنكر الحتمية الصارمة Hard Determinism مسئولية البشر على تطبيق أو عدم تطبيق المبادئ الأخلاقية، وأن المجتمع جدير باللوم إن اعتبر

المجرمين ملومين. ولكن من وجهة نظر أخرى، إذا كان الخطأ حتمى فعقاب المخطئ يجب أن يكون أيضًا حتميًا. من جهة أخرى نادى بعض الفلاسفة والمفكرين بما يسمى بالحتمية اللينة Soft Determinism، أى بتخفيف جمود الحتمية الصارمة فيما يتعلق بعدم مسئولية البشر عن المبادئ الأخلاقية والوجدان العاطفى، فالحتمية قائمة ولكن يتحمل البشر جزءًا من المسئولية تجاه العواطف والقيم الأخلاقية. كان ما تنادى به الحتمية اللينة هى بديهيات الفلسفة الرواقية والتى اعتنقها بعد ذلك بعض مفكرى وفلاسفة النهضة الأوربية مثل الفيلسوف الهولندى باروخ اسبينوزا، وأصحاب الهيجلية المثالية الجديدة، ومفكرين آخرين أمثال: لوك، وهوبز، وهيوم، وستيورات مل، وشبنهاور. أكدت الحتمية اللينة على حتمية احتياج الإنسان إلى المبادئ الأخلاقية، حتى يحتم على البشر تطبيق التعليمات التى فيها صالح البشر، وانتهاج السلوك الأخلاقى، وحتى يمكن تفعيل العقوبات المؤثرة لما فيه صالح المجتمع.

من أجل تضييق الهوة بين الحتمية وحرية الإرادة، حاول الفيلسوف الألمانى كانط التوفيق بينهما باقتراح فكر جديد وهو أن الإنسان مرتبط بـ، ويتعرض إلى كلا من:

* نوع ما من الظواهر الطبيعية التى لها صفة الحتمية.
* نوع ما من الأخلاقيات يكون للإنسان فيها خالص الحرية فى الاختيار والفعل.

يذهب بعض آخر من المفكرين إلى أن هذا الجدل فى الوصول إلى أحقية الحتمية أو الإرادة الحرة، أو معرفة أيهما على صواب أو على خطأ، هو خلاف لا معنى له وغير قابل للحل أو التوفيق. إن المنظومة البشرية قائمة على الاختلاف والتباين فى كل شىء مما يحتم وجود آراء مختلفة، ونظريات متعددة، ومذاهب شتى حتى تتوالد الإثارة، فيقضى الإنسان على بعض من الملل الذى يعيش فيه.

## القدريـــــة Fatalism

تختص القدرية بأمور تعاملات البشر مع المواقف وتقبلها للأحداث، كما ترتبط بفلسفة تسوغ موقف الإنسان مع هذه الأحداث وتحاول تبريرها وإثباتها من مفهوم أن جميع الأحداث الحادثة، وجميع الظواهر الطبيعية والكونية، وجميع سلوك الإنسان وأفكاره، وجميع أفعال باقى الكائنات، نابعة من قوة خارجية، خارقة القوة إلى درجة اللانهائية بالنسبة لمفهومنا نحن البشر. تذهب القدرية إلى فكرة أن الإنسان ما كان يستطيع أن يمنع حدوث ما حدث ولا يستطيع منع ما سوف يحدث وليس فى إمكانه أن يغير ما سيكون، وليس على الإنسان إلا أن يرضى بما حدث وبما سيكون. إنه القدر، أو القسمة والنصيب فى اللغة العربية/المصرية الذى يحدد مسيرة الإنسان وباقى المخلوقات الحية وغير الحية. مجازيا يمكن أن نعزو القدرية - إلى حد ما - إلى الصدفة، أو حدوث حدث بدون سبب، أو حدوث اضطراب مجهول سببه وغير منتظر وقوعه، ولكن لا تزال هذه القوة اللانهائية وراء الصدفة أيضًا.

تنتشر القدرية بكثرة فى الفلسفات الشرقية القديمة، وفى ثقافتها القديمة منها والحديثة. لم ينقطع قبول فكرة القدرية فى المنظومة البشرية - بصفة عامة - لأنها تخفف من الضغوط النفسية التى يتعرض لها الإنسان فى مسيرته الحياتية، فما سيكون سوف يكون دون أن يستطيع الإنسان منعه أو تغييره، لذا لا داعى للقلق ما دام قدر الإنسان أن يعيش مع أمور محتومة وأحداث معينة.

تتضمن الأديان الكثير من الفكر القدرى، فالإله عالم بكل شىء، وفى يده حكم كل الأمور، وهو القوة العظمى التى تستطيع أن تسير الأحداث حسب مشيئته ووفقًا لإرادته فهو الخالق الذى بيده كل شىء، والقادر على فعل أى شىء، هو الذى يحيى ويميت، يحاسب ويعفو. أيضًا يشجع المنجمون الاتجاه القدرى (فالقدر منقوش فى الفنجان وظاهر فى خطوط الكف

وواضح فى ترتيبات النجوم)، ولكنهم أيضًا ينكرونه ويراوغون فى صحته عندما لا يتحقق ما يتنبئون به. إن الإنسان بغريزته الأنانية يتقبل الأفكار التى تتماشى مع مصلحته وفائدته الشخصية، ويعتنق المذهب الذى يتوافق مع شخصيته وتكوينه الجسدى والنفسى.

## الوجوديـــة Existentialism

تعتبر الوجودية فلسفة، وحركة ثقافية تعود إلى السقراطية القديمة، ولكنها برزت مرة ثانية وتطورت فى القرنين التاسع عشر والعشرين. يعتبر الفيلسوف الدنماركى كيركجور فى القرن التاسع عشر هو مؤسس الوجودية الحديثة التى تأثرت بالانفتاح الفكرى ومناخ الحرية الذى ساد أوروبا فى القرنين السابع عشر والثامن عشر. هاجم كيركجور النظام اللاهوتى كمصدر للسلطة العقائدية التى تبرر هروب الإنسان من المسئولية الذاتية. رجع جان فال فى كتاب "نصوص مختارة من التراث الوجودى" بالتاريخ قليلا إلى ما قبل كيركجور: (نستطيع أن نرجع تاريخ فلسفة الوجود إلى فيلسوف عرفه كيركجور هو شلنج، وإلى الصراع الذى أخذه شلنج على عاتقه فى أخريات حياته ضد هيجل، حينما وضع فى مقابل التاريخ الهيجلى ما سماه بفلسفة الوضعية.. وإننا لنستطيع أن نرجع فلسفة الوجود إلى كانط حينما يثبت أنا لا نستطيع أن ننتقل من الماهية إلى الوجود، وهو بهذا يفند البرهان الوجودى - الأنطولوجى - على وجود الله. فالوجود ليس كمالا Perfection، وإنما هو وضع Position).

جاء القرن التاسع عشر أيضًا بثلاثة من كبار الفلاسفة والمفكرين الذين شكلوا الحركة الوجودية، بالرغم من عدم إطلاق على أى منهم لقب وجودى. أول هؤلاء كان الكاتب الروسى فيدور دستويفسكى الذى نادى بخلاص الإنسان من الإيمان الدينى الذى يقيد حريته الذاتية، كان ثانيهم هو مؤسس المذهب الشيوعى كارل موكس الذى اعتمد فى تحليله الاقتصادى على

المضمون التاريخى للإنسان، بالرغم من هجومه على الحرية الاقتصادية. يجىء ثالثهم الفيلسوف الألمانى فردريك نيتشه الذى اعتنق مذهب "قيمة الإنسان فى القوة والمخاطرة"، ومعلنا إلحاده وتمرده على الكنيسة. فى القرن العشرين اعتنق الوجودية الفيلسوفان الألمانيان مارتن هيدجر، وكارل جاسبر، والكاتبان الفرنسيان ألبرت كامى، وبـول سارتـر الذى ساعـد على نشر المذهب الوجودى فى بدايات النصف الثانى من القرن العشرين، وأدخله فى مضمار الفلسفة.

تقوم الفلسفة الوجودية الحديثة التى ظهرت فى القرن العشرين على فكرة أن الوجود سابق على الماهية، أو أن الذاتية تبدأ أولا. شرح الفيلسوف الفرنسى جان بول سارتر معنى الوجودية: (إننا نعنى أن الإنسان يوجد أولا، ثم يتعرف على نفسه، ويحتك بالعالم الخارجى، فتكون له صفاته، ويختار لنفسه أشياء هى التى تحدده، فإذا لم يكن للإنسان فى بداية حياته صفات محددة، فذلك لأنه قد بدأ من الصفر. بدأ ولم يكن شيئًا، وهو لن يكون شيئًا إلا بعد ذلك، ولن يكون سوى ما قدر لنفسه.... وهكذا لا يكون للإنسانية شىء اسمه الطبيعة البشرية، لأنه لا يوجد الرب الذى تمثل وجود هذه الطبيعة وحققها لكل فرد طبقًا للفكرة المسبقة التى لديه... إن الإنسان يوجد ثم يريد أن يكون، ويكون ما يريد أن يكونه بعد القفزة التى يقفزها إلى الوجود. والإنسان ليس سوى ما يصنعه هو بنفسه. هذا هو المبدأ الأول من مبادئ الوجودية، وهذا ما يسميه الناس ذاتيتها). أعطى سارتر مثالا لتفسير الفعل العكسى للفلسفة الوجودية، أى أسبقية الماهية على الوجود. إذا تناولنا أى جزء من ملابسنا - مثلا - نجد أنها صنعها حرفى وفقًا لفكرة مسبقة لديه، وطبقًا لتجربة سابقة عن صناعتها أكسبته معرفة هى جزء لا يتجزأ من الفكرة المسبقة على عملية التصنيع أى وجودها، إذًا فماهية قطعة الملابس - فى مجموعة صفاتها وشكلها وتركيبها وتعريفها - كلها سبقت وجودها. أما فى المنظومة البشرية فقد حدث العكس - طبقًا للفلسفة الوجودية - فقد تواجد الإنسان أولا قبل أن يحدد أو تتحدد له ماهيته.

استطرد سارتر فى شرح الفلسفة الوجودية فى كتاب "الوجودية مذهب إنسانى" فى الفقرات التالية: (نحن عندما نفكر فى الله كخالق، نفكر فيه طوال الوقت على أنه صانع أعظم، ومهما كان اعتقادنا، سواء كنا من أشياع ديكارت، أو من أنصار ليبنتز، فإننا لا بد أن نؤمن بأن إرادة الله تولد أساسًا، أو على الأقل تسير جنبًا إلى جنب مع عملية الخلق، بمعنى أنه عندما يخلق الخلق فهو يعرف تمام المعرفة ما يخلقه، فإذا فكر فى خلق الإنسان، فإن فكرة الإنسان تترسب لدى الله أولا، بحيث يأتى خلقه طبقا لمواصفات خاصة وشكل معين، وهكذا الله فإنه يخلق كل فرد طبقا لفكرة مسبقة عن هذا الفرد. فلما قامت النظريات الإلحادية فى القرن الثامن عشر، قضت على فكرة الله فلسفيا، ولكنها لم تقض على فكرة أن الماهية تسبق على الوجود، حتى وجدنا فكرة الماهية ما زالت مسيطرة على أذهان الكثيرين... فالإنسان له طبيعة بشرية، وهذه الطبيعة البشرية هى ما يصاغ عليها الإنسان، وهى ما يتسم به كل إنسان، أو يشترك فى صفاتها مع غيره من البشر، وبذلك تكون الإنسانية كلها أو أفرادها قد خلقوا طبقا لفكرة عامة، أو مفهوم عام أو نموذج عام يجب أن يكون عليه البشر.... وهكذا نجد فكرة الإنسان فى التاريخ أسبق على حقيقته، بمعنى أننا نجد أنه لا يوجد بشر معينون وكل منهم يختلف عن الآخر، ولكن توجد فكرة عامة وإطار عام يجمع البشر جميعًا ويساوى بينهم، ثم هناك بعد ذلك الآحاد المتميزة من البشر، أى أن الماهية تسبق على الوجود مرة أخرى. لكن الوجودية الملحدة تعلن فى وضوح وجلاء تامين، أنه إذا لم يكن الله موجودًا، فإنه يوجد على الأقل مخلوق واحد قد تواجد قبل أن تتحدد معالمه وتبين، وهذا المخلوق هو الإنسان، أو أنه كما يقول هيدجر، الواقع الإنسانى، بمعنى أن وجوده كان سابقًا على ماهيته).

يؤمن الوجودى بصفة عامة - سواء كان ملحدًا أو يؤمن بوجود الخالق - بأن الوجود سابق على الماهية، أو أن الذاتية تبدأ أولا، كما يتماشى مع مذهب الإرادة الحرة، فالإنسان مسئول عما هو عليه، وكل فرد وصى على

نفسه، يتحمل المسئولية الكاملة على اختياراته وسلوكه. وحيث إن الإنسان يعيش فى مجتمع مكون من آخرين، فعليه يكون الإنسان مسئولا كذلك عن كل الناس. إن الذاتية تعنى حرية الفرد الواحد من جهة، وأن الإنسان لا يستطيع تجاوز ذاتيته الإنسانية من جهة أخرى، والمعنى الثانى هو المعنى الأعمق فى الوجودية، كما نوه سارتر فى المرجع السابق ذكره. إن اختيار الفرد لنمط معين من أنماط الوجود هو تأكيد لقيمة ما يختار وإعلاء لشأنه. من منطلق تحمل المسئولية يشعر الإنسان بالقلق، ولكن يجب على الإنسان أن يتغلب على هذا القلق بحيث لا يؤدى إلى الاستكانة واللافعل. إن القلق الذى تصنفه الوجودية هو القلق الذى يظهر خلال ممارسة المسئولية ممارسة مباشرة تجاه الآخرين، إنه قلق لا يفصل الإنسان عن العمل، بل هو جزء من العمل وشرط لقيامه ليتمكن للإنسان من إتقان العمل والقيام به على أكمل وجه.

فى تناول الفلسفة الوجودية للقيم الأخلاقية، كتب سارتر فى المرجع السابق: (إن الوجود يعارض بشدة هذا النوع من الأخلاق العلمانية التى تنكر وجود الله بكل سهولة، والتى كان يدين بها فلاسفة عاشوا فى القرن التاسع عشر، وأرادوا أن يؤسسوا بها أخلاقًا علمانية مؤداها أن فكرة الله فكرة لا تفيد، ومن ثم فلا داعى للاستمرار فى الإيمان بها... ولما كان المجتمع قد قام وعاش بخشية الله والعقاب، فإن إلغاء فكرة الله يقوض دعامة المجتمع واستقراره القائم على الأخلاق الدينية. والمجتمعات لا يمكن أن تعيش من غير وجود أخلاقى، ولذلك كان لا بد من أن توجد قيم قبلية Prior أى قيم سابقة على أى إيمان بالله أو خشية عقاب.... هذا هو ما حدث مع فلاسفة القرن العشرين الذين قوضوا الإيمان بالله، أما نحن فإننا قوضناه لكننا قلنا باستمرار وجود تلك القيم بالرغم من اعتقادنا بعدم وجود الله... إن الوجودية تقول: إن عدم وجود الله معناه عدم وجود القيم المعقولة كذلك، وعدم وجود الخير بصورة مسبقة، لأن عدم وجود الله معناه عدم وجدان كامل يعقل ذلك الخير، وهكذا يصبح القول بوجود الخير أو بوجوب الصدق

والنزاهة، قولا لا معنى له، لأننا نصير حيال وجود إنسانى بحت لا دخل فيه لوجود الله أو لقيم مصدرها الله. . . كتب دستويفسكى مرة: "إن الله إذا لم يكن موجودًا فكل شىء مباح"، وما كتبه دستويفسكى هو النقطة التى تنطلق منها الوجودية، والتى تعتقد فيها أن إنكار وجود الله يعنى أن كل شىء يصير فعلا مباحًا. . . ما دام الوجود يسبق الماهية فإنه لا عذر للإنسان بإحالة سلوكه وتفسير أسباب تصرفه إلى وجود طبيعة إنسانية مسبقة ومحددة الصفات، وبمعنى آخر يصير كل تفسير بالحتمية تفسيراً مستحيلا، ويصبح الإنسان حرا، بل يصبح هو الحرية. . . ومن جهة أخرى، إذا كان الله غير موجود فإن وجود القيم والشرائع التى تبرر تصرفاتنا تسقط بالتبعية وتصير غير موجودة. . . إن الإنسان محكوم عليه بالحرية، محكوم لأنه لم يخلق ذاته، وهو حر لأنه قد صار مسئولا عن كل ما يفعل بمجرد أن تواجد فى العالم. . . إن الوجودى لا يؤمن بقوة العواطف، ولا يؤمن بأن العواطف قد تؤدى بالإنسان إلى إثبات أعمال معينة، وعلى العكس يؤمن الوجودى أن الإنسان مسئول عن كل ما يصدر عنه عن عاطفة، وأنه لا يمكن أن ينسب ما يصدر عنه إلى غيبيات توحى إليه، وإنما هو الذى يفسر ويؤول هذه الغيبيات كما يحلو له ويروقه. وهو يؤمن أن كل فرد محكوم عليه، دون أية مساعدة تلقى إليه أو معونة تقدم له، محكوم عليه أن يبدع الإنسان الذى هو نفسه. وكما قال يونج فى مقال له: إن الإنسان هو مستقبل الإنسان).

من ناحية أخرى يتهمون الوجودية بأنها دعـوة للاستسلام لليأس، لأنـه ما دامت كل الحلول مستحيلة، فإن العمل فى هذا العالم مستحيل كذلك ولا جدوى منه، وعليه تكون الوجودية فلسفة تأملية وتعتبر من الكماليات. يتهمون الوجودية أيضا بأنها أبرزت النواحى البشعة فى الموقف الإنسانى، وأغلقت الجانب المشرق فى الطبيعة الإنسانية؛ فالوجودية أهملت ما يجب أن يكون عليه البشر من تضامن، وعزلت الإنسان داخل وجوده الفردى. وأخيراً أدينت الوجودية بالإلحاد وإنكار الوصايا الإلهية، والقيم الأخلاقية، فلا يتبقى للإنسان إلا ما يفعله بمحض الصدفة والعفوية، وعليه يستطيع كل فرد أن يفعل ما يشاء.

## مذهب القوة Power Doctrine

قبل أن يتعرف الإنسان على الفلسفة كمنطق وعلم، ضاقت نفسه بأشياء فأسماها شرًا، وجنحت ميوله إلى أشياء أخرى فأسماها خيرًا، وبين الخير والشر تأرجحت أفعال الإنسان. احتار الإنسان فى تصنيف القوة، أهى شر أم خير. إذا استخدمت القوى فى إيذاء الآخرين فهى شر، أما إذا اتجهت إلى مساعدة الضعيف فهى خير، ولكن من منطلق النسبية فى المنظور الإنسانى فقد أصبح تعريف القوة مجردًا من معنى الخير أو الشر، فإذا كانت فى صالحه فهى خير، وإذا جاءت ضد مصالحه فهى شر. إذا كانت بداية الكون من المنظور العلمى قد حدثت من الانفجار العظيم Big Bang حيث كان الكون كمادة يتركز فى كتلة صغيرة تحوى طاقة ضغط هائلة، فإن القوة من المنظور العقائدى قد بدأت فى الستة أيام الأولى من خلق الكون، فمن القوة الإلهية المطلقة خلق الله السموات والأرض وخلق الإنسان متوجًا على جميع المخلوقات. منذ أن استخدم قابيل قواه العضلية فى قتل أخيه هابيل، توالت استخدام القوى من قوى عضلية، إلى الاستعانة بفروع الأشجار والأحجار، ثم استخدم الإنسان السهام والرماح والسيوف، ثم اكتشف البارود فى القرون الوسطى، حتى وصل إلى استخدام أسلحة التدمير الشامل فى العصر الحديث، يفتك بها الآخر، ويتباهى بها فى منظومة القوى. انتهى عهد القوة العضلية كمعيار لقوة الإنسان، فقد تسلح الإنسان بقوة العقل التى سخرت له قوى الطبيعة واستغلال طاقة كوكب الأرض، ومكنته من اختراع أسلحة القتل والدمار الشامل، وسهلت له استخدام قوة المعرفة لاكتشاف المجهول وتطوير حضارته وتدميرها.

لم يبخل رائد الفلسفة السياسية النفعية - الإيطالى نيقولا ميكيافيللى، فى القرن الخامس عشر فى إسداء نصائحه إلى الأمير لورنزو دى ميديشى للتحلى بالقوة مع الدهاء حتى تستمر سيطرته على مملكته، كتب ميكيافيللى فى كتابه

الشهير "الأمير"، فى الفصل الخاص بواجبات الأمير نحو قواته المسلحة: (لا ينبغى أن يكون للأمير هدف أو غاية سوى الحرب. ولا ينبغى أن تشغل فكر الأمير أمور أخرى سوى أمور الحرب وتنظيم الجيوش وإعدادها لخوض الحرب، لأن الحرب هى الفن الوحيد الضرورى لمن يعتلى عرش الحكم. ومن مزايا فن الحرب أنه يكفل بقاء عرش الأمير الموروث عن آبائه الملوك السابقين، وفن الحرب أيضًا هو الذى يُمكن ذوى الهمة من الأفراد ليرتقوا العروش ويقيموا الممالك لأبنائهم وأحفادهم من بعدهم. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، نجد أن من يهمل شئون الحرب ويحتقر فنونها، ولا يتمرس بأساليبها منغمسًا فى اللهو والمجون والترف يفقد دولته، ويزول عرشه، وينقضى ملكه. وسبب ضياع الممالك هو إهمال فن الحرب، والطريق المؤدى إلى إقامة الممالك هو إتقان فن الحرب، والتفوق فى مضماره). واستطرد ميكيافيللى فى نصائحه لأميره بأن يقرأ التاريخ وأعمال عظماء الرجال لتدريب عقله، ويدرس أسباب انتصارهم أو انحدارهم، ليقلد المنتصرين، ويتجنب أخطاء المهزومين.

إذا كان قدر الإنسان أن يخوض صراع دائم فى مسيرته الحياتية، فإن ميكيافيللى قد نصح أميره فى اتباع أسلوب القوة أو أسلوب الدهاء حسب موقف الصراع: (إن هناك أسلوبين من أساليب القتال والصراع. أولهما بالقانون، وثانيهما بالقوة. أولهما جدير بعالم البشر، وثانيهما موجود فى دنيا الوحوش والحيوانات المفترسة. ولكن الأسلوب الأول، أسلوب الصراع فى إطار الشرعية والقانون يفضى أحيانًا إلى نتائج غير كافية أو غير مرضية من وجهة نظر بعض أطراف الصراع، فهم يميلون أحيانًا إلى اتباع الأسلوب الثانى. ومن الضرورى إذًا للأمير أن يعرف جيدًا كيف يتمرس على استخدام أسلوب البشر وأسلوب الوحوش كليهما... وهكذا يكون الأمير مضطرا أن يعرف جيدًا كيف يتصرف تصرف الوحوش مقلدًا الثعلب والأسد فى آن واحد. الأسد لا يستطيع أن يحمى نفسه من الكمائن والمصائد التى يعدها

الصيادون لاصطياده، والثعلب لا يمكنه أن يحمى نفسه من الذئاب. ومن اللازم إذًا أن يكون الإنسان ثعلبًا ليتفادى الكمائن، وأن يكون أسدًا ليخيف الذئاب. . . . الحاكم الحاذق لا ينبغى أن يحفل كثيرًا بالوفاء عندما يكون الوفاء ضد مصالحه وعندما تكون الأسباب التى تضطره إلى الوفاء غير قائمة). لقد أوصى ميكيافيللى باتباع السياسة النفعية مع سياسة القوة، ففلسفته قائمة على إدارة الإنسان، أو الحاكم، أو الدولة للموقف: متى تستخدم القوة، وكيف ومتى تستخدم الحيلة والدهاء، وبأى وسيلة؟ وذلك للوصول إلى الهدف، "فالغاية تبرر الوسيلة" فى فلسفة ميكيافيللى.

كان لميكيافيللى السبق عن الفيلسوف الألمانى نيتشه فى حث من يصبو إلى المجد، الخوض فى الأخطار، واقتحام الأهوال: (والأمراء يصبحون عظماء دون ريب عندما يتغلبون على الصعوبات والمخاطر والمعارضين، وهكذا يصنعون حظوظهم، خصوصًا عندما يشاء الحظ أن يسبغ العظمة على أحد الأمراء الجدد الذى يحتاج إلى مظاهر العظمة بأكثر مما يحتاج إليها أمير ورث عرشه عن أجداده، مما يجعل الأمير الحديث للولاية بحاجة إلى وجود أعداء يجبرونه على حربهم ليتاح له الانتصار عليهم، وهكذا يصعد سلالم المجد التى هيأها له أعداؤه بأنفسهم). وفى نهاية نصائحه، أوصى ميكيافيللى أميره بإنشاء جيش قوى، من جنود أكفاء وشجعان لأن القوة كما تؤدى إلى الانتصار، تساعد على بسط رايات السلام، حين يرى الخصم أن الطرف الآخر يمتلك القوة لردعه والانتصار عليه، فيخاف منه ويرهبه ويجنح إلى السلم بدلا من الاستسلام إذا نشبت الحروب. رغم أن الفيلسوف البريطانى س. جود قد أوضح فى كتابه "فصول فى الفلسفة" ومذاهبها تعدد أهداف الدولة، إلا أنه ذهب إلى حصر هذه الأهداف فى ثلاث: القوة والامتياز والثروة: (لا يمكن أن ننكر أن الدول تصبو إلى القوة، فامتلاك امبراطورية يعتبر فى كل مكان خيرًا، كما أن فقد قطعة أرض يعتبر شرًا. . . فإذا ما تشدقت الدول عن طريق أفواه السياسيين بالقول بأن لها "رسالة مقدسة"

وأن لها "أهمية للدولة" أو عن "المستقبل التاريخى" للدولة فإنهم يقصدون من وراء ذلك أن لهم "رسالة" هى أن يكتسبوا بقعة أرض أو أن يزيدوا قوتهم وأن "مصالحهم" تستلزم الاستزادة من القوة وأن "المقدر لهم" سواء من عند الله أو من عند الحظ أو من الحركات التاريخية أو من نتاج "عبقريتهم" إنما يشير عليهم بزيادة التوسع). لقد سبق الفيلسوف جود الفاتح المغولى جنكيز خان الذى استولى على بلاد عديدة فى آسيا وأوروبا ليكون امبراطورية وصلت إلى ثلثى عالم القرن الثالث عشر من شمال الصين وكوريا إلى أوروبا الشرقية، مروراً بالشرق الأوسط. كان من أهم أقوال جنكيز خان: (إن السعادة العظمى التى يمكن للرجل أن يعرفها هى الانتصار على أعدائه وسوقهم أمامه، وامتطاء أحصنتهم والسيطرة على ممتلكاتهم). وفى العصر الحديث، وفى بداية بزوغ الحضارة الغربية الحديثة، ومع ظهور فلاسفة العلوم فى عصر العقل، ومع بداية فلسفة الشك بعد عصر الاضطهاد الدينى، ظهرت فلسفة القوة، التى أدت بعد ذلك إلى نشوب العديد من الحروب المدمرة.

عاش فى القرن التاسع عشر الفيلسوف الألمانى فريدريك نيتشه رائد فلسفة القوة، مبشراً ببزوغ الديكتاتورية العسكرية القائمة على فلسفة القوة والتى انتهجها هتلر بعد ذلك فى ألمانيا. قامت فلسفة نيتشه على أن إرادة القوة هى جوهر الوجود. عن طريقها يمكن تفسير كل مظاهر الكون، وبمقدار شعورنا بالحياة والقوة يكون إدراكنا للوجود. قام فكر نيتشه على مبدأ تقديس القوة، فالحياة لا تستطيع أن تحيا إلا على حساب حياة أخرى، أو كما كتب عبد الرحمن بدوى فى كتابه "نيتشه": (الحياة هى النمو، وهى الرغبة فى الاقتناء، والزيادة فى الاقتناء، وما دامت الحياة نموا ورغبة فى الاقتناء، فإنها محتاجة إلى شىء آخر خلافها وخارجها كى تتحقق. فكأن الحياة إذًا إرادة استيلاء على الآخرين، وإرادة سطو واستغلال. وطابعها المميز هو الاغتصاب وهضم ما للآخرين فهى إذًا عنصر إفناء وهدم وإيذاء... لكن هذا الاستيلاء

والإفناء لا يمكن أن يتما دون أن يصادفا مقاومة، بل لا بد للحياة الواحدة من أن تجد مقاومة من أنواع الحياة الأخرى التى تصطدم وإياها. . . ولهذا فإن الحياة كفاح دائم، بشرط أن نفهم هذه الكلمة فهمًا واسعًا عميقًا يجعلنا نفهم العلاقة بين السيد والمسود بوصفها نضالا، والعلاقة بين الخاضع والسيد بحسبانها مقاومة).

جاء فى المرجع السابق عن فلسفة نيتشه: (كلما كثرت المقاومة واشتدت الخصومة، زادت قيمة الحياة، وأصبحت إرادة القوة أكبر ثروة وأعظم خصبًا. فالحياة التى تريد أن تعلو، والإرادة التى تريد أن تتحقق فى صور أجل وأعلى، لا بد لها من أن تحرص على طلب المقاومات بنفسها وأن تستثير الخصومات وألوان النضال طائفة مختارة، وأن تخلق لنفسها حالة توتر دائم سواء أكان هذا بينها وبين نفسها، أم بينها وبين الأشياء الخارجة عنها، فالحياة السامية حياة تنشد الخطر وتلح فى طلبه. . فكأن إرادة القوة إذًا هى فى الوقت نفسه إرادة الخطر: أن يجعل الإنسان حياته فى خطر. . . . لأن كل خطر كبير يستثير حبنا للاستطلاع بنسبة ما لدينا من قوة وشجاعة). وفى النهاية تتبلور فلسفة نيتشه فى مقولته: (كى تجنى من الوجود أسمى ما فيه، عش فى خطر).

ليس الألم فى فلسفة نيتشه سلبيا، لأنه إذا كان جوهر الوجود إرادة القوة، والألم ينشأ من الشعور بعدم القدرة على المقاومة وعدم الإحساس بالسيادة، لذا فإن اللذة والألم حقيقتان ضروريتان وهما أسمى ما فى ذات الإنسان من مشاعر وأحاسيس وتفاعل مع جوهر الوجود. إن اللذة لا تنبع من إشباع الرغبة وإرضاء الإرادة، وإنما تنشأ من انتصار الإرادة على كل ما يقف فى طريقها، أو كما كتب نيتشه: (إن الشعور باللذة أساسه عدم إرضاء الإرادة، بأن لا تكون قد شبعت بعد، بسبب انعدام الخصم والمقاومة، لأن عدم الرضى يهيج الشعور بالحياة، وهو دافع كبير لاستثارتها. . . وإن ما يريده الإنسان حقا، وما يريده كل جزء من الكيان العضوى، مهما صغر هذا

الجزء، هو الزيادة فى القوة، وليس تجنب الألم والسعى وراء اللذة وطلبها). والخلاصة إذًا هو أن جوهر الوجود إرادة القوة، لا إرادة الحياة.

لا تختلف الدول، والمجتمعات، والتجمعات، والقوميات عن الإنسان كفرد وسلوك نحو امتلاك القوة. فتطوير السلاح وتصنيعه وتكديسه، وعبادة المال حتى إن كان لا يحتاج الإنسان إلى كل ما جمعه، وخلافه من رغبات الإنسان فى امتلاك عناصر القوى، يؤكد شهوة الإنسان للسيطرة والشعور بالقوة والهيمنة. حتى فى السياسة حيث يطالب الضعفاء بالعدالة والحرية من جانب الذين يملكون القوة. الضعيف فى فلسفة نيتشه هو الإنسان المتساهل، والمساوم، الذى يلجأ إلى الحلول الوسطى، أما القوى فهو المتكبر، المتسيد الذى لا يرضى إلا بالقيادة والوقوف فى الصفوف الأولى. الضعيف ليس له قدرة على مقاومة الإغراء، أما القوى فهو الإغراء ذاته، لا شىء يعلوه، لأنه هو ذاته أعلى وأسمى من كل شىء. فعقيدة القوى كما يقول نيتشه: ( ما لا يقتلنى يزيدنى قوة)، وكما يقول أيضًا: (إن الأسباب التى تؤدى إلى جعل الضعاف من الناس صغارًا حقراء، هى عينها التى تدفع الأقوياء والنادرين إلى العظمة والعلاء). حياة القوى خصبة، أما حياة الفقير فجوفاء. إذا كان كلاهما يتألم، فإن كان ألم الفقير نابع من العوز والحاجة فألم القوة ينبع من فيض السيطرة والهيمنة. الضعيف يريد السلام والوفاق، والحرية والمساواة، ولكن القوى يفضل الصراع والصدام. الضعيف يكبت شعوره بالانتقام داخله، أما القوى فيهاجم ولا يهادن، يرد الإهانة فى الحال، لا ينتظر حالة ضعف خصمه، حياته كلها إثارة، وتوثب وانتفاض، وانقضاض.

إرادة الحق فى فلسفة القوة، ليست إلا خادمًا لإرادة القوة، والحقيقة ليست إلا قناعًا يخفى وراءه إرادة القوة، بالقوى تشكل الأشياء لتتماشى مع إرادتنا. الخير والأخلاق والإحسان.... إلخ، هى أفكار وعقائد يفيضها القوى من زاده على الضعيف. الحياة من وجهة نظر نيتشه: (مجموعة من القوى المرتبط بعضها ببعض عن طريق تغذية مشتركة.... ويتبع هذه العملية

كوسيلة لتحققها كل ما يسمى باسم الإحساسات والتصورات والأفكار، أعنى أولا مقاومة كل القوى الأخرى، وثانيًا إعداد هذه القوى تبعًا لصورة الحياة وسياقها، وثالثًا تقويم الأشياء من أجل تمثلها أو طرحها والقضاء عليها). الموت فى نظر نيتشه جزء من الحياة، مكملا لها، لذا لا مبرر للخوف مما بعد الموت. ليس المطلوب منا أن نحيا حياة طويلة، وإنما نحيا حياة خصبة زاخرة، مليئة بالصراع والمقاومة.

إذا كانت الثقافة الغربية الآن قد بنيت على الفردية، فإن نيتشه قد وضعها فى صورتها الفلسفية، فالمساواة تحول الأفراد إلى حبات رمل فى كومة ضخمة سماها الشعب، الذى لا يعنيه أن يرتفع مستوى الإنسانية، أو يحفل بالأفراد والمتميزين الأرستقراطيين الذين هم خلاصة الإنسانية، وواضعوا قيمها العليا، التى هى قيم السادة لا قيم العبيد. الفرد المتميز فى فلسفة نيتشه يجب أن يسود، وتتطور السيادة وتتصاعد حتى تصل إلى الإنسان الأعلى Super Man الذى يجب أن يسود الجميع. هذا الإنسان هو الذى يملك مجموع القوى ومحصلاتها، بعد أن انتهى من التغلب على شهواته وغرائزه ونزواته، فتفرغ للالتحام مع الآخرين، يصارعهم ويتغلب عليهم. المساواة ما هى إلا أكذوبة فى عالم تتصارع فيه القوى المتباينة فى أشكالها وصورها المختلفة. إن قيمة الإنسان تقاس من وضعه فى المنظومة البشرية. أكان متقدمًا أو متأخرًا، سيدًا أو عبدًا، قويًا أو ضعيفًا. الإنسان الأعلى يجب ألا يتعلق بشخص، أيًا كان هذا الشخص: أب أو أم، ابن أو ابنة، زوجة أو رفيقة الإنسان الأعلى يجب ألا يتقيد بوطن معين. ولا يجذبه مال يأتى من نكوص الرأس، ولا تشده سلطة ناتجة من الإذلال للأعلى، أو منصب يأتى من النفاق والرياء. الإنسان المتميز هو الذى يضع نفسه فوق القوانين وأعلى من القيم لأنه هو واضع القوانين ومنشئ القيم والأخلاق والمثل، لا يأبه بمصطلحات وضعها البشر: من خير وشر، ومن حب وكره، من قسوة وحنان. . . . إلخ. الإنسان الأعلى يجب أن يتحرر من أى قيود، يخاطر بذاته من أجل اكتشاف

الجديد، وفرض قيمه وأخلاقه على الآخرين. الحياة نضال فى نظر الإنسان الأعلى، من أجل السيطرة، والهيمنة، والفوز، والامتلاك، لا يعنيه شىء إلا أن يسير قدمًا نحو هدفه.

الشفقة فى شريعة القوى هى فضيلة الضعيف، ولكن القسوة وحدها هى التى ترفع الإنسان إلى أعلى، تهذبه وتقويه. طبيعة الكون سارت منذ وجود الكائن الحى على قانون الانتخاب الطبيعى: البقاء للأقوى ماديًا وعقليًا، للذى يملك مقومات القوة: من سلطة، وسلاح، ومال، ومعرفة. الضعيف غير جدير بالحياة، وإن عاش فهو يجب أن يبقى عبدًا للقوى، أو كما كتب نيتشه: (إن الإنسان يفقد قواه حين يشعر بالشفقة - نحو الآخرين أو نحو نفسه - وعن طريق الشفقة يزداد فقدان القوة الذى سببه الألم فى الحياة من قبل). يتحول نيتشه بعد ذلك إلى الشعور بالمسئولية، فلا بد للإنسان أن يكون قوى الشعور بالمسئولية عن كل ما يقوم به من أعمال ومخاطر من أجل السمو بالحياة، والصعود إلى أعلى حتى يصل إلى مرتبة الإنسان الأعلى.

ليس دائمًا تستخدم القوة فى التغيير وفرض الإرادة، ففى الجهة الأخرى المقابلة وفى الاتجاه العكسى تستلزم القوة لصد العدوان، ومقاومة فرض الإرادة. تبدأ المقاومة بالقول وتنتهى بالموت من أجل أن يثبت الإنسان أن له ذات يجب أن تحترم. إذا كانت الأيوثيميا هى المصطلح الإغريقى لرغبة الإنسان بأن يعترف به مساويًا ومكافئًا للآخرين، فإن الثيموس هى الحمية والكبرياء والشجاعة للحصول على الأيوثيميا. كتب الفيلسوف الألمانى هيجل فى "فينومينولوجيا العقل": (ليس بالوسع نيل الحرية إلا بالمخاطرة بالحياة، حينئذ فقط يمكننا التدليل على أن جوهر وعى الإنسان بذاته ليس مجرد البقاء على قيد الحياة، ولا هو مجرد الصورة المباشرة التى يبزغ فيها هذا الوعى لأول مرة... فالفرد الذى لا يخاطر بحياته قد يعترف به فردًا، غير أنه لم ينل حقيقة هذا الاعتراف باعتباره وعيًا مستقلا بالذات). ينطبق الكفاح من أجل إثبات الذات على الفرد وعلى الشعب كمجموعة من الأفراد تجمعهم

دولة. ومن منطلق المخاطرة بالحياة تنبع الثورات والحروب الأهلية. وما عناصر القوة إلا سلاح فى أيدى الفرد أو لدى الدولة لإظهار القدرة على فرض الذات، ونيل الاعتراف بالمنزلة المميزة والتقدير من الآخرين. كتب الفيلسوف توماس هوبز: (أن كل إنسان يسعى إلى أن يقيمه الآخر كتقييمه لنفسه. فإن بدرت من الآخر بادرة تشير إلى احتقاره أو الانتقاص من قدره، كان من الطبيعى أن يحاول، بقدر ما تواتيه الجرأة، أن ينتزع أكبر قدر من التقدير ممن ناصبوه الاحتقار، عن طريق إيذائهم). من هذا المنطق كتب فوكاياما فى كتاب "نهاية التاريخ" أنه توجد فى طبيعة الإنسان ثلاثة أسباب رئيسية للنزاعات: أولها التنافس، وثانيها فقدان الثقة بالنفس وثالثها المجد، وقد تدفع الرغبة فى المجد إلى الحروب بسبب أمور تافهة قد يتنازع البشر - فى رأى هوبز - على الضروريات، غير أن الكثير من الناس يتصارعون من أجل نيل الاعتراف والتقدير. إن الكثير من الحروب قد نشبت ليس من أجل الحصول على منافع مادية، بل إرضاء للكبرياء والغرور. أشار فوكاياما فى نفس المرجع إلى قدم مفهوم "الاعتراف بالذات" فى الفلسفة السياسية: (لم يكن هيجل هو الذى اخترع المفهوم وراء الاعتراف، فهو قديم قدم الفلسفة السياسية، ويشير إلى جانب مألوف فى الشخصية الإنسانية. غير أنه لم يكن ثمة كلمة واحدة لآلاف من السنين تستخدم للإشارة إلى ظاهرة الرغبة السيكولوجية فى نيل الاعتراف، فقد تحدث أفلاطون عن الثيموس، وتحدث ميكيافيللى عن تعطش الإنسان إلى المجد، وتحدث هوبز عن كبريائه أو خيلائه وغروره، وتحدث روسو عن أنانيته، والكسندر هاملتون عن حب الشهرة، وجيمس ماديسون عن الطموح، وهيجل عن الاعتراف، ونيتشه عن الوحش ذى الخدين الأحمرين. وكل هذه الصفات إنما تشير إلى ذلك الجانب من الإنسان الذى يشعر بالحاجة إلى إسباغ قيمة على الأشياء، ومن بينها نفسه أولا. هذا الجانب من الشخصية هو المصدر الرئيسى لعواطف الكبرياء والغضب والخجل ولا يمكن إرجاعه لا إلى الرغبة ولا إلى العقل. والرغبة فى الاعتراف هى بالذات الجانب السياسى من شخصية الإنسان لأنها هى التى

تدفع الناس إلى الحاجة إلى تأكيد أنفسهم فى مواجهة الآخرين). إن الإحساس المتضخم بالذاتية يولد العناد والمكابرة، ويؤدى إلى الصراع، أو إلى مقاومة الضغوط والعدوان، وذلك حتى يثبت للذات وللآخرين أنه يوجد كيان يجب أن ينال الاحترام والتقدير.

## البراجماتيـــة Pragmatism

البراجماتية هى مدرسة فلسفية حديثة نشأت وتطورت بواسطة الفيلسوف الأمريكى بيرس C. S. Peirce - ١٨٣٩ - ١٩١٤، الذى يعتبر من أعظم مفكرى الولايات المتحدة فى القرنين التاسع عشر والعشرين، بإعلائه مولد سلوك/ حكمة البراجماتية Pragmatic Maxim فى بداية عام ١٨٧٨م. كانت مجادلة فلسفة بيرس فى أن "الفكرة" تكون لها قيمة - فقط - عندما ينتج عن الهدف منها قيمة، وذلك تحت شروط معينة ومحددة. عرف بيرس معنى الفكرة، بالعواقب الناتجة من التفاعل مع الهدف، أو بسلوك الأفعال المرتبطة بالهدف. ركز بيرس فى مقالاته الفلسفية على: (وضوح الفكرة إذا تم التحقق والتأكد من صحة التأثير الذى يلى الفعل، مع الأخذ فى الاعتبار الشروط الموضوعة فى بحث هدف الفكرة). استنبط بيرس كلمة براجماتية من تطبيقات الفيلسوف الألمانى كانط لكلمة Prgmatisch للقوانين التجريبية المشروطة. وهـذه الكلمـة - براجماتيـة - مشتقـة من الكلمة اليونانية Pragmatica والتى تعنى مرسوم يختص بالأمور ذات الأهمية القصوى للدولة أو للمجتمع، ولها قوة القانون الأصلى أو القانون الأساسى.

فى البداية، كانت نظرية بيرس فى البراجماتية - إلى حد ما - محاولة للتوفيق بين العلم والدين، فقد عرفت النظرية الأهداف الحقيقية للأبحاث والدراسات العلمية والتى تتلخص فى تكوين وصف وتفسير للتجربة، وأن معنى أفكارنا وأهدافنا ممكن التعبير عنها من خلال النظرية البراجماتية. حاول بيرس البرهان على أن الأهداف الحقيقية هى التى تنشأ من الاتفاق الجماعى

فى الرأى، فى مجتمع علمى متطور، ولكنه أيضًا كان يعتقد فى أن الأنانية الفردية تظهر فقط فى حالة الجهل والخطأ، وعليه فإن الصراع العلمى لإثبات الحقيقة له أبعاد عقائدية/ دينية. لقد كان فى الماضى صراع من أجل قهر الطبيعة الأنانية للفرد، ولامتصاص "الأنا" الفردية، ولتحقيق الانسجام مع الذات المطلقة. ذهب بيرس فى أعماله التالية للتأكيد على أن الطرق العلمية هى المعنى الصحيح للوصول إلى هدف الانسجام والتناغم للمنظومات المختلفة التى يحويها الكون بما فيها المنظومة البشرية، وبذلك أصبحت النظرية البراجماتية شرح وتفسير للفكرة التى تؤدى إلى الهدف والغاية، بالعمل والتنفيذ. إن البراجماتية ليست فقط أداة لاكتشاف والتعرف على معنى الأفكار، ولكن تدلنا أيضا على الغرض من تشكيل هذه الافكار.

فى عام ١٨٩٨م طور الفيلسوف الأمريكى وليم جيمس الفلسفة البراجماتية بإضافة التعريف الأشمل التالى: (إن تباعيات أو عواقب الفكرة ليس فقط فى التأثير التجريبى، ولكن أيضًا فى النتائج الاستراتيجية التى يمكن للفكرة أن تؤثر فى نفسية أو عقلية الفرد). لم يتطرق بيرس إلى الجوانب السيكولوجية فى فلسفته البراجماتية، أو إلى التأثير المباشر للفكرة على الفرد من: (سرور أو ألم، من رضا أو عدم اقتناع، من تأثير إيجابى أو سلبى)، ولكنه فى النهاية أقر بتفسير جيمس لنظريته. إن المذهب البراجماتى فى فلسفة جيمس هو القائم على السلوك العلمى، ونتيجة هذا السلوك، فهى فلسفة العمل بمعناه الواسع من التفاهم الهادئ العقلانى والتعامل العادل فى المعاملات. إن فكرة البراجماتية تخضع السلوك البشرى لاختبار مادى واحد، وهو التساؤل عن ثمن هذا السلوك والقيمة الفورية لأى عمل يؤدى. أوضح جيمس معنى "القيمة الفورية" وبقوله: (لا أعنى رد الثمن بالدولارات والسنتات، وإنما أقصد بها الجزاء فى صورة صحة أسلم، وعقل أقوى، وروح أجرأ.. كل ما يؤدى إلى النتائج المرجوة فهو حق، وكل ما لا يؤدى إلى هذه النتائج فهو باطل... إن كلمة الحق وكلمة النفع مترادفتان، فنقول عن فكرة

إنها حق لأنها نافعة، وإنها نافعة لأنها حق، والقولان فى المعنى سواء. . وأيضًا هذا هو معيار الأخلاق، فالذى يجعل للفعل فضيلة هو أنه فعل ناجح). إن الاعتقاد الصادق - فى الفسلفة البراجماتية - هو النافع فقط فيما يتعلق بالفكر، كما أن الصواب هو النافع فيما يتعلق بالسلوك. إن العمل بغير نتيجة تؤدى إلى فائدة للبشر لا يعنى شيئا، والحضارة الإنسانية إن لم تؤد إلى راحة البشر النفسية ورفاهية معيشية فلا طائل منها.

شرح جيمس مذهبه فى بعض من التفصيل فى نصائحه: (لا تجعل هدفك مقصورًا على النجاح وحده على حساب كل شىء سواه، فسواء كنت عاملا أو صاحب عمل فإن الشىء الذى يدر عليك الربح الأكبر هو التعاون الودى لا المنافسة العدائية. . لا تشته جمع المال الطائل لنفسك على حساب أقربائك، فهذا لا يجديك نفعًا، فأى خير يعود علىَّ من الربح إذا كان معناه خسارة لرفاقى من البشر؟. . . فمهما تكن حرفتك فإنك لا تعمل لنفسك فحسب بل تعمل للمجتمع كله، وإنك لواجد سعادتك العظمى فى مجتمع يقوم على العون المتبادل والأمانة المتبادلة والثقة المتبادلة. فى مثل ذلك المجتمع- الذى عليك أن تساعد على خلقه - لا بد أن تكافأ على نشاطك بالحصول على أعلى الأجور فى العالم. وما العملة التى تصرف بها هذه الأجور إلا راحة البال). إن خلاصة براجماتية جيمس هى الدعوة إلى بذل المجهود الفردى فى البناء المطرد لعالم أعظم وأفضل، والمعنى الحقيقى لحياة الإنسان ينحصر فى الحصول على القيمة الفورية لما يقوم به الإنسان من عمل. تجىء هذه القيمة على صورة: إما سعادة ناتجة من صنع عالم أفضل، أو الحصول على عائد مادى يمكن به تحقيق الاحتياجات التى تؤدى إلى السعادة الفردية حسب منظور الفرد للسعادة. طابق جزء من براجماتية جيمس فلسفة القوة والمخاطرة للفيلسوف الألمانى نيتشه، فروح المغامرة فى فلسفتهما تجعل من الحياة معنى، وللمسيرة الحياتية إثارة ومتعة، متعة المخاطرة لا متعة الراحة.

تحت مظلة الحرية الفكرية. قام البراجماتيون الأوائل فى القرن العشرين بنشر آرائهم المميزة فى الفكرة الرئيسية للبراجماتية. هاجم بيرس نظرية المعرفة Epistemology والتى تمثل المعرفة كصرح مبنى على أساس من الأفكار والمعتقدات غير المشكوك فيها، من مبدأ "ندم القابلية للخطأ"، بمعنى أن الاستعلام يبدأ بالاعتقاد من خلال الفطرة البديهة Common Sense ثم بالفحص والتدقيق، لاستنتاج الفروض من أجل القبول المشروط للعلم بالشىء المراد التحقق منه. أما بيرس فقد كان رائدًا فى المنطق الحديث، يؤمن بأن النظرية العلمية هى التى تحقق غرض الاستعلام، وعليه سلوك الفعل.

بالرغم من أن الفيلسوف الأمريكى جون ديوى قد تأثر بالفلسفة المثالية لهيجل فى أواخر القرن التاسع عشر، إلا أنه قد اتجه تدريجيا نحو الفلسفة البراجماتية فى النصف الثانى من حياته، فى النصف الأول من القرن العشرين. رفض ديوى وجهة نظر ثبوت الحقيقة وعدم تغييرها، فالحقيقة فى منظوره تتحدد من مبدأ عواقب الفكرة، أى النتائج التى تلى تنفيذها وإخراجها كفعل. قامت فلسفة ديوى على نظرية التعليم بالفعل بعكس النظرية التى تركز على العقائد Dogmatic، أو التعليم الروتينى القائم على خضوع الفرد وحقوقه خضوعًا كاملا لمصلحة الدولة أو المجتمع، لذا سميت فلسفته بالفلسفة التجريبية Experimentalism أو الفلسفة الذرائعية Instrumentalism التى تذهب إلى أن الفكرة هى وسيلة للعمل وأن فائدتها هى التى تقرر قيمتها، والتى تحولت بعد سيطرة الروح الاقتصادية على الثقافة الغربية بالفلسفة العملية/النفعية التى تؤكد على أن قيمة الفكرة تتحدد وتقيم بالإضافة التى أوجدتها من جراء تنفيذها، أى بالتعريف الاقتصادى ما يسمى بالقيمة المضافة Value Added. اعتنق ديوى فكرة أن المجتمع الديمقراطى يجب أن يغرس فى مواطنيه عادة الاستعلام المفتوح Free Inquiry، وحرية التساؤل من أجل البحث عن الحقيقة، مع نبذ الطرق الجامدة، والأسلوب الديكتاتورى فى التعامل.

كان منظور ديوى للتجربة هو: نتيجة التفاعل بين الكائن الحى كمنظومة، والبيئة التى يحيا فيها هذا النظام، والحقيقة المؤكدة والمبرهنة هى التى تنتج من هذا التفاعل فى صورة حركة/فعل/عمل. لقد أكدت البراجماتية على معنى الفعل كهدف ذى مغزى، وله قيمة وفائدة، أو كما أسماه وليم جيمس Cash-Value للعقيدة أو الفكرة. أدت هذه النظريات إلى توصل الفيلسوف البريطانى برتراند راسل إلى ما يسمى: بفلسفة المهندسين Engineer's Philosophy والتى اتجهت بعد ذلك نحو اللاعقيدة، وإلى حكم المنظومات Systems من خلال نظام فاشستى Fascism يتحكم ويسيطر على جميع أنشطة الإنسان الحياتية بحيث يتحول الإنسان فى النهاية إلى شبه آلة. وأخيراً فقد جمعت الفلسفة البراجماتية بين النظرية والتطبيق، وبين الفلسفة والعلم، وبين الفعل الحركى وقيمة نتيجة الفعل.

تعتبر البراجماتية نظرية لتوضيح الأفكار أكثر منها مذهبًا فلسفيًا، فهى تركز على أهمية الفعل البشرى وهدفه من المنظور التجريبى، والمعرفى والمدلول والغرض منه، فإذا أمكن تحديد - بدقة - كل الظواهر التجريبية التى يمكن تصورها، يمكن تطبيق الإثبات أو الإنكار عليها، حينئذ يمكن تعريف وتحديد الفكرة بصورة كاملة. رفض أصحاب المذهب البراجماتى وجهة النظر التقليدية بوضع العلم فى صورة الصندوق الأسود Black - Box المصون والغير قابل للتغيير، فالعلم دائمًا قابل للتطور. لقد كانت قوانين العالم البريطانى إسحق نيوتن فى الجاذبية والحركة مثل الكتب المقدسة - قبل ثورة العقل والتطور العلمى والتكنولوجى فى أوروبا - غير قابلة للإنكار أو النفى، حتى قام العالم الفيزيائى الألمانى ألبرت أينشتين باكتشاف نظريته النسبية العامة والخاصة فى بدايات القرن العشرين، وأثبت أنه فى السرعات الفائقة تصبح قوانين نيوتن غير قابلة للتطبيق. وضع نيوتن قوانين الحركة فى نهاية القرن السابع عشر والتى جاء فيها:

- يظل كل جسم فى حالة السكون أو الحركة المنتظمة فى خط مستقيم إلا إذا

خضع لتغير حالته بواسطة قوة أثرت فيه.

- التغيير فى الحركة يتناسب مع ويكون فى نفس اتجاه القوة المؤثرة.
- لكل فعل رد فعل مساوٍ له فى المقدار ومضاد له فى الاتجاه.

فى عام ١٩٠٥ وضع أينشتين نظريته فى النسبية الخاصة Special Relativity والتى تخلت عن الأفكار التقليدية السائدة عن الزمن والحركة مع اعتبار النسبية هى الأساس فى جميع القوانين الفيزيائية. وضع أينشتين نظريته فى النسبية العامة General Relativity عام ١٩٠٧، وقام فى عام ١٩١٧ بتطبيق نظريته فى النسبية العامة فى قوانين الفلك وسرعات النجوم، وسرعة الضوء، أى فى قوانين الكون بصفة عامة. إن جميع الأفكار العلمية والفلسفية قابلة للتغيير، وعليه يجب أن يتحلى الإنسان بالمرونة ويتقبل أى تعديل أو تغيير فى الفكر الإنسانى بصفة عامة.

## الأنانيـــة Egoism

يتعامل مذهب الأنانية مع طبيعة الإنسان من منطلقين: الأول من منطلق علم النفس وفيه يسعى كل فرد إلى تحسين وضعه، وتعزيز ذاته، وينتهج السلوك ويقوم بالأفعال التى فيها مصلحته الشخصية. والثانى من المنطلق الأخلاقى حيث يتعين على كل فرد تطوير ذاته إلى الأفضل لتحقيق أهدافه. ينص مذهب الأنانية الأخلاقية Ethical Egoism على مبدأ: (مبرر أخلاقيا أن يتصرف الفرد فى ضوء مصالحه، وأنه كلما فعل الفرد هذا أكثر عاش حياة أفضل)، ويمكن أن تأخذ هذه المصالح شكل إشباع الرغبات والاحتياجات. وبالرغم من أن الكثير من أفعالنا قد تبدو مغلفة بالإيثار ومصلحة الآخرين، وأنها لا تخدم مصالحنا بصورة مباشرة، إلا أن قرارتنا فى الواقع تعود علينا بمنافع مادية أو سيكولوجية بصورة غير مباشرة، وهو الأمر الذى يتضمن نوعًا من خداع النفس بصورة مقبولة ومحببة لنا لتجميل صورتنا أمام أنفسنا وأمام الآخرين. والأنانية عكس الإيثار Altruism أى حب الغير والعمل لمصلحة

الآخرين. تتلازم الأنانية وتتوافق مع مذاهب أخرى عديدة، مثل: مذهب المتعة ومذهب الفردية Individualism والتى تعتقد فى أن جميع القيم والحقوق والواجبات تنبثق من الإنسان كفرد، وأن مصالح الفرد يجب أن تكون فوق كل اعتبار.

آثار توماس هوبز فى القرن السابع عشر معضلة الصراع بين الأنانية والإيثار، ورفض هوبز فلسفة أفلاطون وأرسطو، وأفكار العقائد المسيحية التى تزعم بأن الخير الكامن فى الفرد يتطابق مع السعى لتحقيق الخير الأقصى للبشرية. ذهب هوبز فى فلسفته إلى أن السلوك الإنسانى يحركه المصلحة الشخصية، حتى الخير الظاهر للآخرين يكون وراءه فى الحقيقة مصلحة شخصية من فاعله، فالطبيعة البشرية قائمة على المصلحة الفردية وأنانية الذات. يتوافق مذهب الأنانية مع مذهب الإيثار/حب الآخر، فى الرأى بأن الطبيعة البشرية تحوى كل من الأنانية والإيثار، وأن على الإنسان أن يسعى لتدعيم حب الآخر مع قبول مبدأ الأنانية. قام هنرى سيدجويك فى القرن التاسع عشر بمحاولة لتحليل موضوع القيم الأخلاقية وجادل فى أن كل من الأنانية والإيثار كائنين فى الذات البشرية، ولا يمكن التوفيق وتسوية الصراع بينهما إلا عن طريق العقيدة الدينية.

تأخذنا العقيدة الدينية إلى مذهب الجزمية/الدوغماتية Dogmatism ، والذى يعتقد فى أن تأكيد الرأى والقطع بصحته - خاصة فى مواضيع العقيدة والإيمان والدين - يجب أن يكون بدون مبرر أو إثبات كاف، فالعقيدة فى هذا المذهب نابعة من إيمان داخلى كائن فى ذات الإنسان، ولا يحتاج إلى براهين نظرية أو تجارب علمية لإثبات أو نفى قواعده وتعليماته، إن الإيمان بالدين يجب أن يعتنقه الإنسان دون النزوع إلى أى شك أو لحظة تردد.

## الغائيـــة Teleology

اشتقت كلمة الغائية فى اللغة الإنجليزية من الكلمة الإغريقية Telos بمعنى نهاية. ويعتقد أنصار النموذج "الغائى" بصورة أساسية فى أن كل المخلوقات الإنسانية لديها غاية طبيعية أو هدف يميلون - بشكل مثالى - إلى الاتجاه نحوه أو تطويره. ويمكن أن تكون الغاية دنيوية، وهى الحالة التى يمكن أن يكون فيها الهدف الطبيعى للمخلوقات البشرية هو الاستمتاع بحياة طيبة فى مجتمع عادل، أو تجاوز تلك الحالة بالوصول إلى السمو الروحى والتأمل الفكرى. ويمكن للغاية أن تتحد أيضًا فى إطار لاهوتى، وهى الحالة التى يمكن أن تتحدد فى المتعة الأبدية بعد الحياة الدنيوية. ومن خلال الفكر الدنيوى للنموذج الغائى، يكون الأفراد مطالبين بأن يعيشوا حياتهم وفقا لقواعد مجتمع عادل وأن يكونوا فاضلين أخلاقيًا وأن يناضلوا من أجل نماذج السعادة المركبة للحياة الاجتماعية والكمال الفكرى. أما النسخة اللاهوتية فتنص على أنه ينبغى على الناس تعديل أنماط حياتهم ليتسنى لهم تلقى الحكمة التى يسلمها لهم آباؤهم والسلطات الدينية.

إن المذهب الغائى يفسر الشىء أو الحدث بالغرض من وجوده، أو الهدف من ورائه، أو النهاية التى سيؤول إليها الشىء أو الحدث وأصبح موجودًا، أو الشىء أو الحدث اللازم من أجل الوصول إلى هذا الهدف وتحقيق هذه الغاية. كمثال لذلك ما يذهب إليه البعض فى الأديان السماوية بأن الله قد خلق الإنسان ليعبده، وأن العين وجدت ليتعرف بها الإنسان على البيئة المحيطة، وأن الله خلق الاختلاف فى الشعوب لكى يتعارفوا. بدون شك فإن الفلسفة الغائية تقدم تفسيرًا منطقيًا لفعل الإنسان الشعورى. ولكن تبالغ هذه الفلسفة أحيانًا، بمد مجالها على العمليات اللاشعورية فى الإنســان والحيوان والنبات، والأشياء غير الحيــة أو فاقــدة الوعى أو غير القادرة على الحركة Inanimate. تذهب الفلسفة الغائية الى أن نجاح تحقيق الهدف يحقق معنى

الغائية، أما الفشل فى تحقيق الهدف لا يعتبر غائيًا ولكنه هو مجرد اختبار لوجود الشيء، ويمكن تفسير فعل هذا الشيء لذاته فقط أى أنه فعل مجرد ليس له هدف أو غاية. تنظر الغائية إلى المبادئ الأخلاقية كنتيجة نهائية، وإلى أحقية الفعل فى أن نطلق عليه صواب/ خطأ، أخلاقى/ غير أخلاقى، ولكن لا تقوم الغائية بتفسير أسباب حدوث الفعل.

يعتبر الإنسان البدائى القديم غائيًا بالطبيعة، ينسب غاية غامضة ومبهمة بالنسبة له - فى ذلك الحين - لأى ظواهر طبيعية مثل شروق الشمس وغروبها، والبرق والرعد والمطر، . . . إلخ، أو لأى ظواهر حياتية مثل: الولادة والمرض والموت، . . . إلى آخره من الظواهر التى يحيا بها الإنسان منذ ولادته حتى وفاته، فغاية الظواهر التى تضر الإنسان هى عقاب من القوة الغامضة أما غاية الظواهر التى تفيده فلأن القوة الغامضة راضية عنه. ولكن مع تطور العلم، وارتباط الفلسفة بالعلوم الطبيعية، ظهر فرع جديد فى الفلسفة يسمى بالفلسفة التحليلية والتى رفضت فكرة الغائية بالرغم من تقبلها فكرة السببية، زاعمة أن المذهب الغائى ليس فقط غير واضح وغير عقلانى، بل هو أيضًا مبهم ومتناقض ومتعارض مع العلوم الحديثة. هاجم أيضًا أصحاب المذهب البيولوجى والتطور الطبيعى الأسباب الغائية التى أيدها مذهب الحيوية Vitalism، والذى يدعو إلى أن الحياة مستمدة من مبدأ حيوى وأنها لا تعتمد اعتمادًا كليًا على العمليات الفيزيائية والكيميائية.

## النسبيـــة Relativism

وهو مذهـب يؤمـن بنسبيـة أى شيء، وأن الحقيقـة نسبيـة وتتفاوت تبعًا للفرد بشخصيته الفريدة، والزمان، والظروف، والبيئة المحيطة. فى الطرف الآخر من النسبية يجيء المطلق Absolute، وتعنى هـذه الكلمـة فى الفلسفة: الكامل فى ذاته والذى يحوى كل شيء، الأصلى/ الأصيل، غير المشروط Unconditioned، والحقيقـة النهائيـة - الحقيقـة المطلقـة

Ultimate Reality، والتى ينسب إليها كل شىء، ولا تنسب إلى شىء. المطلق فى العقائد الدينية وفى علم اللاهوت هو الخالق سبحانه وتعالى، الإله، الرب، القادر على كل شىء ولا يقدر عليه شىء.

أشارت الفلسفة الأخلاقية للفيلسوف الألمانى كانط للمطلق: كقاعدة إلزامية مطلقة ومشروطة بكل المواضيع العقلانية. أيضًا استخدم هذا المصطلح فى الفلسفة الهيجيلية المحدثة فى أواخر القرن التاسع عشر.

## المذهب الذرى Atomism

مذهب فلسفى يعتقد أن الوحدات التى لا تتجزأ Indivisible Units وغير القابلة للانقسام هى الحقيقة المطلقة للعالم الفيزيائى المادى Physical Universe، وأن كينونة هذه الوحدات يمكن تحليلها وتصورها كجسيمات مواد Material Particles، وأن العالم المادى يمكن تقبله - من منظور الفكرة - كشىء شامل لجميع الحقائق. اعتقد الفلاسفة الإغريق: لوسيبوس، وديمقراطيس وأبيقريوس فى القرن الخامس قبل الميلاد أن جميع الحقائق المطلقة تتكون من عدد لا نهائى من الجسيمات المادية التى لا يمكن تجزئتها أو اختراقها للوصول إلى ما بداخلها، وأن هذه الجسيمات أو الذرات لا يمكن رؤيتها، ولكن يختلف بعضها عن البعض الآخر فى الحجم والشكل. ينتج عن التصادم العشوائى لهذه الذرات حركة دوامية Vortices، أو حركة دورانية سريعة Whirls، كما أن الذرات المتشابهة تتجمع معا لتكون جسيمات المادة، والتى تتجمع بدورها لتكون الأشكال والصور المختلفة للعالم المادى.

إن العدد الذى لا يحصى من الأشياء المادية فى هذا الكون المترامى الأطراف هى نتيجة للتجميعات والتركيبات المختلفة للذرات، وعليه يمكن اختصار كل الاختلاف النوعى Qualitative Differences للأشياء المادية فى

اختلاف كمى Quantitative Differences، وحركة ميكانيكية. أما الروح فى منظور هذا المذهب فما هى إلا ذرات غاية فى الدقة والبراعة Subtlest Atoms، والحذق والمهارة. يأتى الاختلاف والتنويع فى هذا الكون من التوزيع المتغير للذرات، والتشكيل المختلف للجسيمات.

من خلال المفهوم السابق، وجد الفلاسفة الذين اعتنقوا هذا المذهب بأنه لا حاجة للتصنيف النوعى للذكاء، أو لوجود عقائد دينية، فكل اختلاف نابع من التشكيلات المختلفة للجسيمات المادية. توارى المذهب الذرى كفلسفة بعد ظهور المسيحية فى أوروبا، ولكنه عاد مرة ثانية مع عصر العلم الحديث فى القرن السابع عشر على يد أصحاب المذهب الآلى، ثم توارى مرة أخرى بظهور الفلسفات التطبيقية والبرجماتية الحديثة.

## مذهب الآلية Mechanism Doctrine

يتعامل هذا المذهب الفلسفى مع الكون ككل، ومع جميع مكوناته كآلة. فى هذا المذهب يمكن وصف الكون ومنظومته وتفسير ظواهره من خلال نظام آلى. يشمل هذا المذهب المحاور التالية:

* حتمية الحدث، وأن الشىء مجبر على ما هو عليه.
* أسباب فعالة وذات كفاءة متناهية.
* أن الأحداث تسير وفقًا لقوانين.
* خاصية التجميع والتركيب، أى أن الشىء ينتج من الأجزاء المكونة له، ووظيفة الشىء هى ناتج وظائف أجزائه.

إن الأشياء وأجزاءها/ مكوناتها هى عبارة عن مادة أو أشياء طبيعية Material or Physical، ومن ثم فهى قادرة على الحركة والامتدادية ويمكن قياسها ووصفها داخل المنظومة الكونية العظمى.

انتشر هذا المذهب فى القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر فى عصر العقل وبداية الاكتشافات العلمية فى مجال الفيزياء، والكيمياء، والفلك، والرياضيات. كان من أنصار هذا المذهب الفرنسى رينيه ديكارت، والرياضى بيير لابلاس الذى زعم أنه إذا توفرت للإنسان عقلية فائقة وخارقة، فعن طريق الحسابات الرياضية يمكن معرفة جميع الأحداث من لحظة الخلق والتكوين وحتى نهاية الكون.

يعارض المذهب الآلى أية فلسفة أخرى تعتقد فى وجود أى تمثيل أو عامل جوهرى بخلاف العوامل الفيزيائية والميكانيكية. لا يعترف أصحاب هذا المذهب بأن التغيير فى الفكر العلمى يمكن أن يؤثر فى الحقيقة، ولكنهم يسلمون بأن الحقيقة قد تفسر الدرجات المتفاوتة للمثالية الميكانيكية. يظهر التناقض الواضح فى منطقية هذا المذهب فى أنه بينما يفسر الحياة والعقل كقياس تمثيلى مشابه للماكينات الآلية Automatic Machines، فإن الماكينات الآلية نفسها تنشأ من أجل أغراض الحياة المادية والعقلية، فالبشر هم الذين اخترعوا الآلة فى المصنع لتصنيع سلع ومواد لاستعمالها فى منظومتنا الحياتية، والحاسب الآلى قد اخترعه الإنسان من أجل راحة مجهوده الذهنى. قد يكون الكون والمنظومة الحياتية تأخذ فى كثير من الأحيان النمط الآلى، ولكن عدم الانتظام أيضًا قائم فى منظومة غير محددة وغير مؤكدة اليقين إلا للخالق.

## الحياتيـــة Vitalism

هى حركة مضادة للفلسفة الآلية، ولدت فى القرن السابع عشر تمردًا على الثورة العلمية، وانقلابًا ضد الفيزيقية من عصر جاليليو إلى عصر نيوتن. كانت الحياتية تقاوم مذهب أن الحيوان الإنسان ما هو إلا آلة، وأن كل مظاهر الحياة يمكن تفسيرها بالكامل بأنها مادة فى حالة حركة. رأى معتنقى مذهب الحياتية أن قيام الحياة مرتبط بوجود مادة خاصة غير موجودة فى الجماد، أو أن الحياة تكمن فى قوة خاصة مختلفة عن القوى الفيزيائية. تماشت الحياتية

مع الغائية فى أن الحياة وجدت لتحقيق غاية قد تنتهى فى الدنيا الحاضرة أو تمتد إلى العالم الآخر، أى ما بعد الموت. انهارت الحياتية فى الربع الأول من القرن العشرين كنتيجة لتطور علم الأحياء، والانحسار التدريجى لفكرة أن بنية الكائنات الحية تتألف من مادة خاصة مختلفة تمامًا عن المادة غير الحية.

## حتميـــة البيئـــة Environmentalism

يؤكد مذهب حتمية البيئة على تأثير المحيط الطبيعى والثقافى فى نمو الكائن الحى وفى سلوكه وعلاقاته مع البيئة والمجتمع. تذهب حتمية البيئة أيضًا إلى أن النظم الثقافية والاجتماعية تنشأ وفقا للبيئة الطبيعية / الفيزيائية. إن التكوين النفسى والجسدى للإنسان الذى يعيش فى الصحراء الممتدة الآفاق وبصفاء سمائها وندرة مياهها، يختلف - إلى حد ملموس - عنه فى الإنسان الذى يعيش فى جزيرة منعزلة ومحاطة بالمياه. وكذلك يختلف إنسان الغابات التى تمتلىء بالضوارى والحشرات، عن الإنسان الذى يعيش فى بيئة جليدية تطفى على الإنسان روح الهدوء والبرود. أيضًا يحتم نوع العمل الذى تفرضه البيئة على الإنسان، التميز فى الشخصية، ونمطية سلوك العمل إلى حد ما، فالبيئة تفرض على الإنسان سلوك يتغير بتغيير المكان والزمان.

## المواطنـــة العالميـــة Cosmopolitanism

يرمى هذا المذهب - الحديث إلى حد ما - إلى التحرر من الأحقاد القومية، واعتبار الإنسانية أسرة واحدة وطنها العالم وأعضاؤها أفراد البشر جميعًا، دون اعتبار لاختلافهم فى اللغة أو فى الجنس أو فى الوطن أو فى العقيدة/ الدين. انتشر هذا المذهب فى العقدين الماضيين تحت اسم العولمة Globalization، وتحت اسم الانفتاح (اقتصادى، وثقافى، . . . . .) أصبحت فكرة المواطنة العالمية بديلا للمحلية Localism.

## المذهب الإدراكى Conceptualism

يتعامل المذهب الإدراكى مع وجود الكون كمفهوم عام تتمثل فيه المنظومة البشرية Human System، أو الحقيقة كأشياء موجودة فى العقل أكثر منها أشياء موجودة فى الطبيعية. يتواجد المذهب الإدراكى فى منتصف الطريق بين وجهتى نظر تقعان فى الطرفين المتناقضين وهما الواقعية Realism التى تعتقد فى الواقع القائم، والاسمانية Nominalism التى تعتقد فى أن المفاهيم المجردة ليس لها وجود حقيقى وأنها مجرد أسماء ليس إلا. كان أفلاطون - كفيلسوف واقعى - يعتقد أن الكون يوجد كشىء موضوعى Objective ويمكن إدراكه بالحواس فى طبيعة خارج منظور العقل غير الموضوعى Objective Mind. إن المذهب الإدراكى يوافق على وجود الفكر العام أو المفهوم العام Common Sense، ولكن هذا الوجود قائم - فقط - فى عقولنا الشخصية/ الفردية. أما الاسمانيين فلا يعتقدون فى الوجود الشامل للكون، لا فى الطبيعة أو فى العقل، فالإنسان هو الذى أعطى لكل شىء، أو لأى صورة ذهنية فى المخ اسمًا عرفها به ويتعامل مع هذه الصورة الذهنية من خلال ما تداول من أسماء.

## فلسفة اللاأدرية أو (اللاأدرى) Angosticism

هى شكل من مذهب الشك الذى يدافع عن قصور العقل البشرى الذى يخلو من المعلومات والقدرة العقلية للحكم على الحقيقة القصوى والمجردة، وبالأخص عن وجود طبيعة الخالق. صاغ هذا التعبير فى اللغة الإنجليزية هكسلى فى القرن التاسع عشر من حرف ( a ) لنفى الكلمة اليونانية Gignoskein بمعنى المعرفة. بخلاف الإلحاد Ateism وإنكار وجود الله، فإن فلسفة (لا أدرى) لا تنكر حقيقة "الله" وتعتقد فى وجود الخالق، ولكن لا يستطيع العقل البشرى تصور كينونته.

بدأت اللاأدرية فى عصر ما قبل سقراط، وأيضًا فى عهد أفلاطون مع الفلسفة السفسطائية بإثارة أسئلة الشك، منكرين أى إمكانية للمعرفة الموثوق فيها واللانهائية اليقين. أما فى العصور الحديثة، فقد عادت هذه النزعة مع فلاسفة الشك فى بداية عصر العقل فى أوروبا فى القرن الثامن عشر. . لقد أنكر الفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم صواب أى أفكار خاصة بالميتافيزيقيا، وبالأخص رفض البراهين والدلائل للاعتقاد فى "الرب" ومعجزاته، أو فى الخلود والحياة الأخرى. ولكن فى نفس الوقت اقترح هيوم بأن يكون تناول قضية الإيمان، بعيدًا وغير مرتبط بالبراهين التجريبية. ثم جاء الفيلسوف الإنجليزى هربرت سبنسر فى نهاية القرن التاسع عشر برفض العقيدة التقليدية، والتصور الدارج لوجود (الرب) مشيرًا إلى: (إن القوة التى تظهر الكون لنا، وتوصل للبشر إدراكهم به هى قوة غامضة تمامًا). وأخيرًا جاء الوقت ليقوم عالم البيولوجى الإنجليزى توماس هنرى هكسلى بصياغة تعبير "اللاأدرية". لقد ناهض هكسلى قبول آية أفكار أو معتقدات بدون براهين ثابتة ومؤكدة. انطفأ توهج فلسفة (لا أدرى) فى القرن العشرين - بالنسبة للقرن السابق عليه - بالرغم من انتشارها واعتناق الكثيرين لها فى الحضارة الغربية. لا ينتهى القرن العشرين إلا بصعود التزمت الدينى والسلفية والرجوع إلى الكتب السماوية. من سخريات منظومة الجنس البشرى تزامن الرجوع إلى التدين مع زيادة العنف والقتال والإرهاب، بالرغم من أن جميع الأديان السماوية والمعتقدات غير السماوية تدعو إلى التسامح، والمحبة، والعفو عند المقدرة، والإخاء. ولكن هل رجوع الغربى أو الشرقى إلى الدين، كان بمفهوم صحيح أو مفهوم ارتضاه الإنسان الحديث لتبرير غريزة القتل والعنف؟

## الفوضويـــة Anarchism

يعتبر مذهب الفوضوية مثل مذهب البيئة، هى فى جزء منها فلسفة رومانسية. والفوضوية هى فلسفة تعمل ضد التنظيم الدينى وتنادى

بالبروميتيوسية Prometheam، أى إلى الابتكار وإلى خيال النفس المبدع الذى يصوغ القانون الخاص به ويشكله.

ينادى أيضًا المذهب الفوضوى برفض فكرة الحكومة، أو إلى النظم السياسية التى تنظم الحكم، ولكن يجب أن تتبع الشعوب الواقع الفعلى القائم على استمرار التغيير والتطوير. غالبًا تكون الأساطير وثيقة الصلة بترابط المجتمع وتماسكه، ولكن هذه الأساطير نادرًا ما تكون هى نفسها متماسكة، لذا فالقوانين التى تثبت تماسك المجتمع غير واقعية. كانت الفوضوية مثل الشيوعية لهما جاذبية ساحرة على الدوام، فالإنسان تحوى جزء من ذاته الثورة التى تطالبه بأن يثور على المألوف - حتى وإن كان لحين - ثم العودة إلى الوضع الطبيعى والتقليدى السائد مرة ثانية.

## العدميـــة Nihilism

مذهب فكرى ليبرالى نبع من روسيا فى منتصف القرن التاسع عشر، له نزعة إنكارية ترفض كل شىء، ولا تعترف بفكرة القيم والمثل والتقاليد والقوانين والمبادئ الأخلاقية فى المجتمع، كما تنكر وجود الحقيقة بجميع أشكالها وأنواعها، كما لا تعترف بقدرة الإنسان على فهم الواقع، فكل شىء فى حكم اللاوجود، والمبدأ فى أى شىء هو العدم، وحيث إن أصل الأشياء هو العدم فلا يتوالد من العدم إلا العدم. كمذهب ليبرالى متحرر عارضت العدمية المذهب الفاشستى Authoritarianism الذى يؤمن بإخضاع الفرد وحقوقه - شاملا المجال الأخلاقى والسياسى والدينى - إخضاعًا كاملاً لسلطة ومصلحة الدولة، كما عارضت العدمية النزعة العاطفية والرومانسية. تحمست العدمية للمذهب المادى، مقتنعة بأن الفكر العلمى يجب أن يقود الإنسان فى الحياة، متأكدة من أن الأدب والفن لا قيمة لهما، وليسا مخصصين للحياة الاجتماعية، أو للأهداف الثورية.

إذا كان مصطلح العدمية قد انتشر بعد أن جاء فى رواية للكاتب الروسى إيفان تور جنيف عام ١٨٦٢ تحت اسم "آباء وأبناء"، فإن مذهب العدمية قد أخمد سريعًا، تاركًا آثاره على النزعات العدوانية، والمذاهب التى تدعو إلى التحرر من سلطة الدولة، وسلطة المجتمع والتقاليد. استمرت العدمية فى محاربة النزعة الجمالية فى أوروبا وفى المجتمع الروسى على وجه الخصوص، مؤكدة دور العلوم فى سيادة النظم الحياتية.

## الواقعيـــة Realism

هى مذهب فلسفى يقر بأن للمادة وجود حقيقى مستقل عن إدراكنا العقلى لها. كمثال على ذلك. فالمادة فى الحقيقة ليس لها لون ولكن اللون يتأتى من سقوط الأشعة على الشىء فتمتص المادة بخصائصها المميزة جميع أشعة الطيف عدا نوع واحد تعكسه فترى العين هذا الشىء بلون الطيف المعكوس، فبذلك تكون للمادة المرئية - التى ليس لها لون - وجود مختلف عن إدراكنا العقلى لها، برؤيتنا لها كمادة ملونة.

## الاسمانيـــة Nominalism

هى مذهب فلسفى يذهب إلى أن المفاهيم المجردة أو الكليات، ليس لها وجود حقيقى، وإنما هى مجرد أسماء لا غير، ويميل هذا المذهب إلى العبثية، أى لا يوجد أى معنى أو وجود لأى شىء.

## المذهب التجريبى Empiricism

التجريبية مذهب فلسفى يؤكد على أن المعرفة الإنسانية كلها مستمدة من التجربة، وتقلل من وظيفة العقل فى التحصيل والاستنتاج والتفكير بصفة عامة. يتعامل هذا المذهب مع نظريتين أساسيتين وهما نظرية المعنى والمدلول

Theory of Meaning، ونظرية المعرفة Theory of Knowledge. جرى العرف فى بداية عصر العقل فى أوروبا أن يتناول الفلاسفة نظرية المعنى من منظور الأفكار والإدراك والمفهوم. وفى القرن العشرين شكل أصحاب المذهب التجريبى نظرية للمعنى من منظور التجارب التى تحدد ما إذا كان الإدراك والمفهوم قد طبق فى الوضع أو المسار الصحيح أو قد وضع فى المكان الخاطئ. يعتقد التجريب أنه من الممكن أن نتخيل ونتفهم الروح كسيال متدفق من التجارب الشعورية، أما المادة فما هى إلا نموذج للخاصية الإحساسية. أما بالنسبة لنظرية المعرفة، فهى تعتبر المعلومة والمعرفة أساس ومنشأ الإدراك. ينكر المذهب التجريبى على الإنسان قدرته على الحدس العقلانى، ولكن استطاع أن يحصل على المعرفة والمعلومات والتمييز ما بين الخطأ والصواب، من خلال الملاحظة والتجربة.

## الذاتينية Subjectivism

هى نظرية فلسفية تعزو إلى العقل الفردى أو الموضوع وما يرتبط بهما - من إحساس Sensation، وأفكار، ومواقف، وشعور، وعواطف - التفوق والامتياز عن دون جميع مخلوقات الكون. كما تنسب النظرية إلى المعرفة نفس الدرجة من الامتياز والتفوق، وأنها نابعة من الخبرة الذاتية. تشابه الذاتينية المتطرفة مذهب الأنانية Solipsims الذى يرى أنه لا يوجد وجود لشىء إلا الأنا، أما الذاتينية الأقل تطرفًا، فتترك مجالاً للمعرفة الخارجية والعقول الأخرى للتأثير فى العقل الفردى.

انتشرت الذاتينية فى بداية العصور الحديثة، خاصة القرنين السابع عشر والثامن عشر على يد معظم الفلاسفة الكبار الذين شاركوا بفلسفتهم فى هذا الوقت، مثل: جاليليو، وتوماس هوبز، ورينيه ديكارت الذى قال: (أنا أفكر، إذًا أنا موجود I Think, Therefore I am)، وجون لوك، والفيلسوف الإنجليزى جورج بيركلى الذى قال: (إن كل الواقع فكرة فى عقل الله).

جادل بيركلى فى أن طبيعة وصفات الأشياء الخارجية وبالتالى الأشياء نفسها ما هى إلا مجموعات Collections من هذه الأشياء توجد - حتى الآن - كما تدرك بالشعور الموضوعى (To Be is to Be Perceived). من هذا الأساس أنشأ بيركلى الميتافيزيقيا المثالية التى أنكرت وجود جميع الأشياء المادية، وقصرت الحقيقة على العقل والأفكار فقط.

فى القرنين التاسع عشر والعشرين حول المذهب المثالى Idealism - والذى كان يرى أن الحقيقة المطلقة كامنة فقط فى عالم يتعدى عالم الظاهر، وأن الطبيعة الأساسية للحقيقة كامنة فى العقل - مذهب الذاتينية لديكارت وبيركلى إلى المثالية المتعالية Transcendental Idealism. تذهب الفلسفة المتعالية Transcendentalism إلى أن اكتشاف الحقيقة يتم بدراسة عمليات الفكر وليس عن طريق الخبرة أو التجربة. كانت هذه النقطة هى بداية المثالية المطلقة Absolute Idealism فى فكر فشته، وهيجل، وشوبنهاور. كان الفكر الفلسفى فى القرن العشرين ضد مذهب الذاتينية، وقاد الثورة على هذا المذهب جورج إدوارد مور، وبرتراند راسل، وتشارلى برود، والفريد وايتهيد.

## مذهب وحدة الوجود Pantheism

تعنى الوحدانية فى الفلسفة أن الله والطبيعة شىء واحد، وأن الكون المادى والكائنات الحية - شاملة الإنسان - ما هى إلا مظاهر للذات الإلهية. اشتقت هذه الكلمة فى اللغة الإنجليزية من كلمتى Pan بمعنى الكل، Theos بمعنى "الرب". يقع هذا المذهب ما بين المذهب الإلحادى Atheism الذى ينكر وجود "الرب"، وبين المذهب الدوجماتى/ التوحيدى Dogmatic Theism بمعنى التوحيد والإيمان بوجود إله خالق واحد، حيث إن كلمة دوجماتى تعنى العقيدة الدينية، وكلمة Theism تعنى الإيمان بوحدانية الخالق.

تتناول الفلسفة فكرة وجود "الرب" وكينونته من خلال ثلاثة اتجاهات: الأول ينكر وجوده من الأساس، والثانى يعتقد فى أن الرب هو خالق الكون ومسبب جميع الأشياء - أى هو الذى يُسَير بذاته الإلهية كل شىء - ولكنه لم يفسر لنا طبيعة العلاقة بينه - كسبب - وبين الوجود المادى كمؤثر. أما الاتجاه الثالث فيذهب إلى أن الخالق قد خلق الكون فى البداية ثم ترك طبيعة الأشياء تأخذ مجراها فى إيجاد الحوادث والمسببات والتأثير وذلك لتسيير الكون بالطبيعة الآلية، أى يرجع السبب للتأثير ومنه للسبب، وعلى الفكر البشرى أن يستنتج العلاقة بين السبب والتأثير. يعتبر الاتجاه الثالث هو منبع تفسير مذهب وحدة الوجود Pantheism، كما يمكن اعتبار أن فكرة/ منظور "الرب" فى عقيدة التوحيد Theism وفى مذهب وحدة الوجود Pantheism نابعان من أصل واحد. يفترض مذهب وحدة الوجود تطابق وتماثل السبب والتأثير، حيث إن السبب يؤدى إلى التأثير (كنتيجة للسبب) ويعقبه السبب (كنتيجة للتأثير). إن المادة، والفكر، وجميع مخلوقات الكون الحية وغير الحية، هى نتيجة الانبثاق Emanation من الألوهية Deity. تتضمن وحدة / وحدانية الكون من جميع المخلوقات والتشكيلات المختلفة، والتى يمكن تفسيرها من خلال النتيجة التى ستؤول إليها، وعليه فإن كل شىء موجود يحوى فى كينونته تفسيرات وجوده والتى يمكن أن يفسرها الذى يستقبل Receiver وجود الشىء - بمعنى الإحساس بوجود الشىء - حسب قدرات وإمكانيات المستقبل.

## المثاليـــة Idealism

المثالية كمذهب عام متعدد الأبعاد: فى الفلسفة، والأخلاق، والفن، وعلم النفس، اشتق مصطلح المثالية فى اللغة الإنجليزية من مصدرين، الأول بمعنى الفكرة Idea التى تنشأ فى العقل، حيث يمكن إدراك وفهم العالم المادى - فقط - كنتيجة للعقل والروح أو التجربة. إن كل أشياء الكون ليست

إلا صوراً ذهنية، وإن العقل هو الحقيقة المطلقة بينما الأشياء الأخرى هى أفكار تتشكل وتفسر فى العقل. من المصدر الآخر تشتق المثالية من كلمة مثالى Ideal بمعنى الكمال. عرف الدكتور حسين عبد القادر مصطلح المثالية فى "موسوعة علم النفس": (تمتد معالجته من أفلاطون عندما رأى أن المثل هى وحدها الموجودات الحق وما الأشياء غير أشباح لها وهو ما اصطلح على تسميته بالمثالية الأنطولوجية. وهو فى الأخلاق يعنى تلك المبادئ العامة التى تعتبر أساسًا للأخلاق كغاية فى ذاتها والتى ينبغى أن يكون السلوك الإنسانى نابعًا منها ومستهديًا بمعاييرها. بينما تقوم المثالية فى الفن كمدرسة بذاتها لا ترى فى الفن منطلقًا للمحاكاة بل هو تعبير وتأكيد لمثل أعلى مكافئ إلى حد كبير لنزعة الكمال Perfectionism، تلك الخاصية التى قد تتسم بالوسواسية وتميز النمط الوسواسى وقد تكون تكوينا عكسيا لخبرات طفلية مناقضة لها، وهى فى الآن نفسه قد تكون نوعًا من الإعلاء لدى أولئك المثاليين الذين يبغون تحقيق المثل العليا ويسعون دومًا للعمل على بلوغها).

كان أفلاطون هو أول من ذهب إلى هذا الاتجاه فى استيعاب فكرة الكون، ولكن كانت أفكاره عامة وليس لها صفة التحديد. كانت مثالية أفلاطون تنصب على الطبيعة الروحانية للواقع، وتقليص الطبيعة المادية للحالة الظاهرة. تطورت مثالية أفلاطون بواسطة (الأفلاطونية المحدثة) Neoplatoism والتى ظهرت فى القرن الثالث الميلادى، وفيها تفاعلت فلسفة أرسطو مع المفاهيم الشرقية لتكوين منظور قريب من الصوفية التى انتشرت فى بلاد الشرق. أثار شكاكو Skeptics القرن الثامن عشر - الذين شككوا فى أمور الدين - بعض الخلافات والمناقشات بخصوص المثالية الحديثة، وكان من هؤلاء الفيلسوف الأيرلندى جورج بيركلى الذى كان يرى أن الأشياء المادية ما هى إلا أفكار تتكون فى العقل. أراد الشكاكون تحرير العقل من الأمور غير الجوهرية، بينما كانت المثالية الحديثة تذهب إلى تكوين صور روحية، أو على الأقل تكوين صور منطقية وعقلانية للكون.

يعتبر المذهب المادى Materialism هو الاتجاه المعاكس للمثالية، ففيه تكون المادة هى الحقيقة المطلقة، والتى ينسب إليها العقل ويتأثر بها. تختلف المثالية أيضًا عن الواقعية Realism والتى تذهب الى أن الكون والأفكار المجردة لا تعتمد على العقل. ظهر فى منتصف القرن التاسع عشر مذهب آخر مماثل للمثالية، يرى أن العالم المادى يمكن إدراكه واستيعابه بواسطة العقل ولكن من خلال التجربة الحسية أو التجربة العقلية. فى العادة تصنف المثالية إلى مثالية موضوعية يمكن إدراكها بالحواس Objective Idealism ، ومثالية تقوم بتحليل الشىء المادى كنتيجة نهائية للخبرة الإنسانية Subjective Idealism. والمثالية كمذهب عام يرتبط بالعقلانية Rationalism كبعد معرفى يركز على المعرفة الاستدلالية، والعلم التجريبى. ولا يعترف المذهب التجريبى على الغيبيات، أو إلى نظريات ما وراء الطبيعة Metaphysics. تقارب المثالية الموضوعية مذهب الظاهرانية Phenomenalism الذى يقصر المعرفة على الظاهر فقط، فالأمور والأشياء الظاهرة هى وحدها التى تحدد الحقائق. يتقارب مذهب المثالية مع مذهب وحدانية الكون Pantheism القائل بأن الخالق والطبيعة وجميع الكائنات الحية شىء واحد، فالكون المادى والإنسان ليسا إلا مظاهر للذات الإلهية. يختلف مذهب المثالية عن مذهب اللاأدرية - لا أدرى - Agnostic الذى يقوم على استحالة معرفة الحقيقة المطلقة، فطبيعة الأشياء أو حقيقة وجودها كلها أمور مجهولة للإنسان.

## الفلسفة التطبيقية Applied Philosophy

بدأت الفلسفة التطبيقية فى الظهور بصورتها الحالية فى الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين من المحاولات الثقافية والعالمية المختلفة للتعامل مع أخلاقيات الحياة الفعلية والمشكلات الاجتماعية والسياسية التى كان يتم تجاهلها قبل ذلك. أصبحت الحقوق الطبيعية أو الإنسانية هو أحد الموضوعات التى تتمتع حديثًا بوضع جديد فى المجال الفكرى والفلسفى، ومنها المساواة

والعدالة، والحقوق القانونية، والتفرقة العنصرية، والشذوذ/المثلية، وحقوق الذين لم يولدوا بعد وحقوق بعد الوفاة، وحقوق الأقليات، والجنوسة Gender، وحق المريض فى إنهاء حياته أو ما يسمى بالموت الرحيم وذلك من مبدأ أن للإنسان الحق فى إنهاء حياته أو أن يذهب هذا الحق إلى أقرب قريب له فى حالة دخول المريض فى غيبوبة غير قابلة للإفاقة، والحق فى الإجهاض، وأخلاقيات الحرب، وأخلاقيات استنساخ الإنسان واستنساخ الأعضاء البشرية والهندسة الجينية، وغيره من المواضيع التى لم تتطرق إليها الفلسفة من قبل.

ظهرت فى إطار المناقشات الثقافية التى صاحبت بزوغ الأخلاق التطبيقية، خطوط تقليدية فى التفكير حول الأخلاق الفردية. كان أهم هذه الخطوط هى الأخلاقيات الغائية Teliological، والأدبية/الأخلاقية Deontological، والتراتيبية/المنطقية Consequentialist، وجميعها مسارات تمدنا بإجابات مختلفة عن السؤالين الأساسيين:

- ما هى الطبيعة الإنسانية؟

- كيف ينبغى على الأفراد أن يتصرفوا من أجل أن يكونوا أخلاقيين؟

إذا كانت الغائية تذهب إلى أن الإنسان له غاية طبيعية أو هدف - دنيوى أو دينى - يميل إلى الوصول إليه، فإن وجهة النظر الأخلاقية/الأدبية - والتى تشترك مع بعض أشكال التفكير الغائى - تعتقد فى وجود مبدأين متصارعين يحكمان السلوك الإنسانى وهما الرغبات والحس الأخلاقى، وأن الإنسان ينبغى عليه أن يجد الدليل أو المرشد الأخلاقى الذى يحتاجه ويميل إليه فى مسيرته الحياتية. يأمرنا العقل والمنطق Reason باتباع القانون الأخلاقى، وهو فى العادة يعمل ضد رغبة الفرد، بينما يميل الاتجاه العاطفى إلى منظور آخر وهو أن المشاعر والأحاسيس Feeling هى التى تخبرنا بما يجب أن نفعله فى المواقف المختلفة. إن الطريقة التى يرى بها أنصار التفكير التراتبى والرفاهية، هى أنهم يريدون تجنب الألم والمعاناة والتعاسة والشقاء.

فالأفراد مؤهلون - بالغريزة - بقدر متساو للأنانية/ الذاتية، مثلما هم مؤهلون للإيثار وحب الآخرين، بمعنى أن الإنسان قادر على التفكير فى سعادته ورفاهيته مع المحاولة فى أخذ سعادة الآخرين فى الحسبان.

تتركز أهم الأسئلة الأخرى فى المناظرات المتعلقة بالإجهاض والقتل الرحيم حول التعريفات الخاصة ببداية الحياة ونهايتها. ولكن عند مناقشة مزايا ومساوئ التكاثر الاصطناعى والهندسة الجينية، فهناك مجموعة أخرى من الأسئلة تبرز، منها قبول فكرة الحصول على حياة مهما كانت بائسة بدلا من ألا تحصل حياة مطلقًا. قضية أخرى ظهرت حديثًا وهى: هل يستطيع الآخر أن يقرر أن حياة أحد الأفراد تستحق أكثر أو أقل أن تحيا بدلا من حياة شخص آخر؟.... قد تظهر هذه المشكلة فى توزيع إمكانيات العلاج بين الأفراد، وتفضيل فئة عن فئة أخرى، أو فرد عن فرد آخر، فى حالة وجود قصور أو عجز الإمكانيات.

فى مقال عن الفلسفة التطبيقية فى منعطف القرن كتب هيتا وماري هايرى: (حينما ابتعد الفلاسفة التطبيقيون عن مجال أو نطاق الحياة "الإنسانية" وحولوا اهتمامهم إلى مسائل مثل رفاهية الحيوانات وحماية بيئتنا الطبيعية، صعد إلى المقدمة نمط جديد من القضايا أو الأسئلة المتعلقة بالقيمة. لقد ظل السائد هو أن قيمة الوجود الإنسانى تنبع من أحد مصدرين لا ثالث لهما. فالرأى القائم على مركزية الإنسان هو حقيقة الكون المركزية. ينص على أنه طالما أن البشر هم فقط المخلوقات ذات القيمة فى الكون، فإن قيمة الحياة ومعناها هما تدابير إنسانية صرفة. أما المؤيدون لرأى مركزية الإله فيعتبرون بدورهم أن قيمة الحياة هى إحدى الخصائص أو الجوانب التى لها أصل إلهى. لكن كثيرًا من المتخصصين فى "علم الأخلاق" ممن يركزون على القيمة المستقلة للمخلوقات الحية يجادلون بأن كلا من الادعاءين زائف، وأن قيمة الحياة كلها فى الواقع الفعلى تكمن فى الحياة ذاتها، مهما كان الشكل الأكثر تحديدًا الذى تأخذه. وقد وضع هذا الرأى تحت عنوان "المركزية

البيولوجية Biocentric، وطرح تحديات مثيرة للطريقة التى ترى بها المدارس الفلسفية العريقة قيمة الحيوانات الفردية والأنواع والموجودات البيولوجية الأخرى، مثل غابات الأمطار والجبال والأنهار والمحيطات. وتعتبر الأسئلة المتعلقة بالحياة وقيمتها ذات أهمية "للأخلاقيات البيولوجية" التى هى فى هذه الأونة المنطقة الأكثر تقدمًا فى الفلسفة التطبيقية. ويتضمن أحد المجالات البارزة فى الدراسة: أخلاقيات المحترفين وأخلاقيات المال والأعمال والاختبار النقدى أو البحث النقدى للقضايا والأسئلة المتعلقة بالحرب أو المجاعات والتلوث والكوارث الأخرى التى هى من صنع الإنسان أو الكوارث الطبيعية والصراعات بين المصالح الأساسية، بالإضافة إلى أن الممارسات مثل التفرقة العنصرية والعقوبات الاقتصادية والرقابة، قد تبلورت وأصبحت واضحة من خلال المناظرات السياسية الأخلاقية). لقد أصبح مجال الفلسفة أشمل وأعم، وخرج من الثوب الضيق لعلم الوجود وما وراء الطبيعة إلى المشاكل التى تمس معيشة الإنسان، وكينونته، ورفاهيته.

## العقلانيـــة Ratonalism

مذهب فكرى يتعامل مع جميع جوانب الحياة الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، والمعرفية، والعلوم التطبيقية وخلافه. يتمثل هذا المذهب فى اعتبار العقل هو القيمة العليا فى الحياة، وهو المدخل إلى الحقيقة واليقين المؤكد، ومعيار كل شىء، وأن المنظومة البشرية تحكمها نظام عقلى قائم على مجموعة من المبادئ والمسلمات والقوانين التى تتفق عليها كل العقول السليمة والرشيدة، وأن هذه المبادئ تتميز بالسمو فوق العواطف، وتتخطى الجزئيات. كان الفيلسوف الفرنسى رينيه ديكارت فى القرن السابع عشر من أنصار المذهب العقلانى، فبدأ فكره بالعقل كحقيقة أولى، وانتهى به كحقيقة أخيرة، وبه أثبت وجود كل شىء حتى وجود الذات الإنسانية. والعقلانية لا تلغى مصادر المعرفة التجريبية والاكتسابية ولكن تؤكدها، على أن المرجع فى

تصديق أى معرفة هو العقل، فهو أساس كل حقيقة يقينية.

تشير الفلسفة العقلانية إلى العقل كأداة رئيسية للمعرفة والاختبار، وهى تعارض المذهب التجريبى Empircism الذى يعتمد على الملاحظة والتجربة، فالجزء المهم والأساسى للمعرفة - من وجهة نظر العقلانية - يأتى من البصيرة النافذة النابعة من التفكير العقلانى، وذكاء العقل الذى يستطيع الخوض فى جميع مجالات المعرفة، ومحاولة الوصول إلى الحقيقة المؤكدة. إن المعرفة الحقة - فى المذهب العقلانى - لا تأتى فقط من الحس العام أو من التجربة، ولكنها تأتى أيضًا من تحليل السبب والمبرر والتفكير المنطقى والعقلانى.

## الفلسفة الوضعية Positivism

استخدم تعبير الوضعية فى الفلسفة والعلوم الاجتماعية بواسطة الفيلسوف الفرنسى أوجست كونت فى القرن التاسع عشر. كان هدف كونت الرئيسى تحويل جميع فروع الفلسفة إلى فلسفة العلوم والذى أطلق عليها الفلسفة الوضعية. انصبّ عمل كونت على محاولة التنسيق بين جميع فروع العلم، وجميع نتائج البحوث فى المجالات المختلفة للعلوم، مثل: الرياضة، والفلك، والفيزياء، والكيمياء، والأحياء، وعلم الاجتماع، . . . إلخ، وتوحيد طرق البحث والتحليل فى هذه المجالات.

كان رأى كونت أن الفلسفة يمكنها أن تقود وتسرع فى التطور إذا أمكن الوصول إلى علم خاص يوحد بين جميع مجالات العلوم السابق ذكرها، فالفلسفة الوضعية يجب أن تكون المرحلة النهائية للفلسفة بحيث تشمل جميع العلوم.

## التأريخية Historicism

اتجاه فكرى حديث تمثل فى أفكار هيجل ونيتشه وهايدجر. يميز مؤرخ

الفلسفة السياسية المعاصر ليوشتراوس بين نمطين أساسيين، أولهما التأريخية النظرية أو التأريخية التأملية، والذى يتمثل فى فلسفة هيجل ونظرته للتاريخ. وطبقا لهذا النمط فإن العلم تتمثل مهمته فى تأمل الحركة التاريخية التى ما هى فى جوهرها إلا تطور عقلى. جعل هيجل من فلسفة التاريخ بديلا للفلسفة السياسية بمعناها السقراطى، فالفلسفة السياسية فى تصوره لا ينبغى أن تعنى بما يجب أن تكون عليه الدولة ولكنها ينبغى أن تقصر اهتمامها على استكشاف ما هو متحقق فعلا فى لحظة تاريخية معينة، ومن ثم ومن خلال هذا المفهوم الهيجيلى نجد أن الفلسفة السياسية الكلاسيكية تفقد مبرر وجودها، أما النمط الثانى من أنماط التأريخية فهو ما يطلق عليه شتراوس "التأريخية الوجودية" أو "التأريخية الراديكالية"، وقد ظهر هذا الاتجاه مع الموجة الثالثة من موجات الحداثة ويعتبر نيتشه رائده الروحى، كما يعد هايدجر أبرز المدافعين عنه فى القرن العشرين. وتتفق التأريخية الراديكالية مع هيجل فى أن الإنسان لا يمكن فهمه إلا فى ضوء التاريخ لكنها تختلف معه فى أن التاريخ ليس تطورا عقليا، بل إنه لا يمثل تطورا صاعدا بالضرورة، وفى رأى هذا الاتجاه أن الإنسان ليس بوسعه أن يتجاوز حركة التاريخ ولا أن يستوعبها، ذلك أن سائر التفسيرات المختلفة للتاريخ تتلون دائما بمنظور الحاضر العابر المؤقت الذى تمت فيه ولا يمكن أن تنفصل عنه. ومن ناحية أخرى فإن التأريخية الراديكالية تتفق مع الوضعية فى رفضها إمكان قيام الفلسفة السياسية، فما كان للإنسان فى رأيها أن يتوصل إلى معرفة الخير المطلق الذى يصدق على كل زمان ومكان والذى تزعم الفلسفة الكلاسيكية أن البحث عنه هو مهمتها الأساسية. إن الفلسفة بأسرها ذات طابع مشروط ومقيد دائما بنمط تاريخى معين، قد يكون مثلا هو نمط الإنسان الغربى المعاصر، أو النمط الشرقى القديم، إن التأريخية الراديكالية وإن اتفقت مع الوضعية فى رفضها للفلسفة السياسية، فإن هذا لا يعنى أنها ترضى عن الموقف الوضعى، فهى ترفض الوضعية فى الوقت الذى ترفض فيه الفلسفة التقليدية، وترى أن الوضعية قد جانبها الصواب حينما تصورت أن العلم قادر

على اكتشاف معرفة موضوعيته بالعلم الواقعى، ذلك أن سائر مقومات ومبادئ الفهم إنما هى مشروطة تاريخيا كذلك، بحيث لا يمكن قيام معرفة صحيحة إلا فى حدود معينة ومن منظور معين.

ترى التأريخية النظرية التى تطورت على يد هيجل ثم واصلت مسيرتها فى القرن العشرين بواسطة بعض المفكرين الهيجلين من أمثال الكسندر كوييف، أن الفلسفة السياسية بمعناها السقراطى قد عفا عليها الزمن بعد أن تجاوزتها فلسفة التاريخ، التى تنظر إلى العملية التاريخية باعتبارها تطوراً عقليًا للكل الشامل. من هذا المنطلق ينبغى على الفلسفة السياسية أن تخلى الطريق للعلوم السياسية التى تصف ما تمخض عنه التطور التاريخى الفعلى، لا أن تنظر إلى ما ينبغى أن يكون عليه المجتمع السياسى الأمثل، ذلك أن المجتمع الأمثل ما هو فى الحقيقة إلا ذروة ما تمخض عنه التطور التاريخى وهى ما تمثله دائمًا اللحظة الراهنة.

## فلسفة اليوجا Yogi Philosophy

هى فلسفة روحية ونفسية نبعت فى الهند، وأخذت فى الانتشار فى الثقافة الغربية كرد فعل لسيادة النزعة المادية/الفردية. تطالب هذه الفلسفة الإنسان بأن يسمو بالروح، ويرتفع فوق الأحداث الشخصية من أجل انفتاح بصيرته، ويعم نور الصفاء الداخلى فيكون من السهل على الإنسان أن يرى طريقه، وأن يسير فيه بالسكينة والاطمئنان النابع من القوة الداخلية للذات البشرية. تطالب أيضًا هذه الفلسفة بأن يفقد الإنسان القدرة على أن يجرح، فاليد قد تجرح، والكلمة قد تجرح. على الإنسان أن يتخطى مرحلة البكاء على الكرامة المجروحة والنقد الجائر والإساءة الظالمة، وأن يتجاوز تجربة الفشل والاستسلام لليأس الناتج عن خيبة الأمل وعدم تحقيق الهدف. ترفض هذه الفلسفة الصراع والتنافس والتكالب على الاستحواذ المادى، فجميع معضلات الحياة لها حل، يمكن الوصول إليه من خلال الصفاء الذهنى والروحى.

**تتلخص فلسفة اليوجا فى أربع قواعد مهمة:**

- قتل الطمع والطموح.
- قتل الرغبة فى الحياة.
- قتل الرغبة فى الترف.
- العمل كما يعمل الطامعون والطامحون، والإقدام على الحياة واحترامها كما يحترمها الراغبون فى الحياة، والشعور بالسعادة مثل الذين يعيشون فى رفاهية وترف.

قد يبدو ظاهريا تناقض فى القاعدة الرابعة عن القواعد الثلاث الأولى، ولكن بوصول الذات إلى القوى الروحية الحقيقية، يستطيع الإنسان أن يطبق هذه القواعد بدون الشعور بأى تناقض فالقواعد الأربع تكمل بعضها البعض، ويمكن بالممارسة أن تتناغم وتتكامل. إن الإحباط هو مشكلة الإنسان الأساسية، وهو ينتج من فشل الإنسان فى تحقيق هدف يطمع أو يطمح فيه. إن الفشل يصيب الإنسان بالإحباط والنزوع إلى الانطواء أو العدوان، وكلاهما يؤدى إلى الانهيار والهدم، لذا إذا عمل الإنسان كما يعمل من يريد تحقيق الهدف دون أن يكون الهدف هو ما يصبو إليه، فسيعمل بكامل جهده ولن يصيبه الإحباط إذا فشل فى تحقيق الهدف، ولكن سيحصل على نتاج جهده إذا نجح.

إذا أصبح الإنسان عبدًا لرغباته وشهواته بدون مراعاة الآخرين، فسيتحول المجتمع إلى غابة تحوى كائنات هى مزيج من العبيد والحيوانات البشرية. ولكى يعم السلام والمحبة والسعادة بين جموع البشر، فإن فلسفة اليوجا تدعو إلى مقاومة خمسة من أعداء البشر وهم: الشهوة والغضب والطمع والتملك والغرور. إن العمل كما يعمل الطامعون الطامحون، ولكن بدون طمع أو طموح، سوف يصل بالإنسان إلى هدفه دون تدمير من يقف فى طريقه، ويمكن الوصول إلى أعلى قمم النجاح دون قلق من الفشل. يجب أن يعمل

الإنسان بكل حواسه وجهده، من مبدأ أن العمل عبادة روحية وذهنية، وأن فى العمل لذة وسعادة، وأن كنه الحياة فى التغيير الذى لا يأتى إلا من خلال الحركة التى تضيف ولا تهدم، والعمل الهادف والإيجابى، الذى فيه نفع للفرد وللمجتمع. إن الطموح الحقيقى هو السير إلى النهاية فى طريق العمل الشاق الذى لا ينتظر من وراءه حمد أو أجر، وحيث إن الطريق له نهاية، فنهاية الإنسان يجب أن تكون عدم القدرة على العمل إما بالموت أو بالمرض، وحتى المرض يمكن ألا يعوقنا عن العمل والعطاء إذا كان فى العقل قدرة على العطاء والإنجاز.

تدعو فلسفة اليوجا إلى محو فكرة أن الحياة الدنيا هى كل شىء فى هذا الكون، إن المقصود بقتل الرغبة فى الحياة هى قتل فكرة الحياة التى تحمل الإنسان على الخوف من الموت والتى تولى الحياة أكثر مما تستحق من الاهتمام بالذات المادية. إن الإنسان القوى هو الذى لا يرتعد من فكرة الموت، وفى نفس الوقت تنص القاعدة الأخيرة على احترام الحياة، فيجب على الإنسان أن يحترم عقله وجسده بحيث لا يدنس العقل أو الجسد بتفاهات الحياة أو السيئ من التفكير. الإنسان فى فلسفة اليوجا يتقبل الحياة كما هى دون تذمر أو تجهم، يعيش كل لحظة فيها بقوة وسعادة ورضا، غير آسف على ماض أو خائف من مستقبل.

ليس معنى قتل الرغبة فى الترف والتى تنص عليها القاعدة الثالثة، الزهد أو التقشف أو التقتير فى نهل مباهج الحياة. إن من الخطأ أن يعيش الإنسان فى دنيا كلها مباهج ولا يستمتع بها، ولكن يجب أن يكون سيدًا لمباهج الحياة لا عبدًا لها، وذلك على طريق الإيمان بالقيم الأخلاقية. إن فى الصبر على الحرمان والتعود على العمل الشاق فوائد كثيرة للنفس البشرية، فالحياة لا تسير فى رتم سلس أو على هدى ورغبة الفرد على طول الطريق، فعند التعرض للشدائد سيكون الإنسان قويًا بعد أن تعود على الصبر واكتسب قوة الاحتمال. تدعو القاعدة الرابعة إلى الشعور بالسعادة الحقيقية وليست السعادة

الظاهرية، والسعادة الحقيقية تنبع من جلاء البصيرة لمعالم الطريق، والرضا عن كل ظروف الحياة التى تحوى التغيير والتضاد من صحة ومرض، وحب وكره، وعطاء وحرمان، إلى آخره من جميع عناصر وظروف الحياة. وأخيراً تدعو هذه الفلسفة إلى الابتعاد عن داء الكبرياء، وعن التفاخر الكاذب وعن الصراع الذى يكلف الإنسان الكثير من صحته وسعادته.

## الفلسفة فى الحاضر والمستقبل

كان القرن الثامن عشر فى أوروبا هو نقطة الانقلاب على الجمود الفكرى وأساطير الأقدمين، والانطلاق نحو فكر إنسانى مدعم بالعلم والمنطق، لذا سميت هذه الفترة بعصر العقل أو عصر التنوير. كتب كرين برينتون فى كتاب "تشكيل العقل الحديث": (أدرك فلاسفة القرن الثامن عشر بالفطرة الغريزية السليمة التى ندرك بها أعداءنا أن الكنيسة الكاثولوكية الرومانية هى العدو فاختصوها بأشد الهجمات وأقساها. ذلك لأننا لو آمنا مثلما آمن جمهرة هؤلاء الفلاسفة بأن الإنسان العادى خير وعاقل بطبيعته فإن النقيض المقابل لذلك هو فكرة الخطيئة الأولى. ولكن الجانب الأكبر من مجموع أفكار التنوير: النزعة الطبيعية وإنكارها للغيبيات، والنزعة المادية، والإيمان بالتقدم المؤكد هنا على الأرض، ومقت التقليد والتراث، وكراهية التسلسل الطبقى الرسمى، والإيمان بالحرية والمساواة... فى عبارة مهمة جدا نقول: إن التحول فى موقف الإنسان الغربى من الكون وكل ما فيه هو التحول من نعيم المسيحية الغيبى فى السماء بعد الموت إلى النعيم العقلانى الطبيعى على هذه الأرض).

أدى التطور الحضارى للإنسان إلى تغيير نظرته إلى ذاته وإلى بيئته، وإلى طبيعة علاقاته بالآخرين. استحدث الفكر الفلسفى فروعًا جديدة ومختلفة مثل الأخلاق والبيئة للحفاظ على مناخ صحى لا يسود المجتمع المحيط فقط بل يمتد إلى جميع بقاع كوكب الأرض. امتد مجال التحديث أيضًا إلى عالم

الطب والهندسة الوراثية، ومشروعية الاستنساخ البشرى وأخلاقيات عمليات التعديل الجينى وعلوم الحياة بصفة عامة. امتدت الفلسفة أيضًا إلى مجال المال والأعمال والتجارة وأخلاقيات الاقتباس والغش التجارى، والإعلام الإباحى. لم تعد الأطروحات النظرية والخاصة بالموت وما وراء الطبيعة هى السائدة - خاصة فى الحضارة الغربية - وإنما أصبح كل ما يمس ذات الإنسان وكينونته هو محور اهتمام البشر فى العصر الحديث. لقد أدى التقدم التكنولوجى فى مجال المعرفة والمعلومات إلى نهم الإنسان إلى معرفة المزيد فى هذه المجالات والتطلع إلى علوم جديدة قد تتشكل فى المستقبل، وارتباط الفلسفة بها، مما دفع بعض الفلاسفة والمفكرين إلى الكتابة فى موضوع جديد هو "فلسفة المستقبل"، يختلف عن الفكر السائد فى "مستقبل الفلسفة". يعتبر اقتحام آفاق الكون، والهجرة إلى خارج كوكب الأرض من المواضيع الجديدة التى سوف تتناولها الفلسفة فى العصور القادمة. ساد التفكير التحليلى عن طريق الفلسفة المقارنة والتى تعتبر فرعًا جديدًا من فروع الفلسفة يقارن طبيعة الأفكار فى الثقافات المختلفة، مثل: مفهوم الخير/الشر، الصواب/الخطأ، من منظور الثقافات الشرقية والثقافات الغربية. بعد انتشار نظرية صراع الحضارات/الثقافات، بدأ المفكرون فى المقارنة بين الأديان السماوية الثلاث وتأثيرها على الثقافات الشرقية والغربية، فى محاولة لم تنجح - حتى الآن - لتضييق الاختلاف العقائدى من أجل أن يعيش البشر جميعًا فى سلام.

وأخيرًا، إذا كانت الفلسفة قد بدأت بأسطورة الخلق وبداية الكون، ومن مبدأ الدورة الكاملة المتكاملة فسوف تنتهى بأسطورة الفناء والنهاية أيضًا، إذا كانت الفلسفة تعنى الحكمة أو حب الكلمة والمعرفة، فإن الفلسفة لم تصل بالإنسان إلى الحكمة وحبها، أو إلى السعادة وتحقيقها. كانت الفلسفة دائمًا وسيلة للهروب من مسارات غير مطلوبة، والالتجاء إلى مسارات مرغوب فيها، وإلهاء الإنسان عن ملل عقيم، ورتابة سقيمة، لذا تعددت الآراء، واختلفت الأفكار والفلسفات والمذاهب والنظريات فى منظومة قائمة على حتمية الاختلاف.